

زواج برهومة
وقصص أخرى

تأليف: نسيم مجلى

الفهرس

3	1- زواج برهومة
8	2- بدر الزمان الشهرمانى
12	3- راكب الدرجة الممتازة
13	4- روى اللطيف
17	5- حالة غش
23	6- الذئب
30	7- ورقة بخمسين جنيها
42	8- في بيتنا أرنب
47	9- حلم صيني
50	10 - كنعان أفندى
59	11- قطرات من الدم
68	12- الشيخة سعدة
74	13- ذات ارداد الأخضر

E-mail: nasimmijalli @hotmail.com

1- زواج برهومة

- والله وصبحت عريس يا برهومه
- اسكت. كارثة، مصيبة!
- هو الزواج كارثة؟
- ليس زواجا. هذا عقاب من أبى
- على إيه؟
- ماجبتش مجموع فى الثانوية العامة يدخلنى الجامعة.
- لكن تفسر الزواج إزاي على أنه عقاب؟
- حكم على أن اتزوج قريبتى وأن أرث وظيفة أبيها.
- لم تعد الوظائف تورث يا صديقى منذ قيام ثورة يوليو 1952
- أدخلنى مدرسة الحركة عشان أشتغل كمساري بالسكة الحديد زى ابوها.

ضحكت بصوت عال. لم تكن المرة الأولى التى
يضحكنى فيها برهومة. فقد كان زميل الدراسة وأقرب الأصدقاء الى قلبى.
كان صديقا ودودا وصريحا لا يعرف الخبث سبيلا الى قلبه، لكنه كان
عاطفيا جدا متقلب المزاج. وكان تقلبه يرجع الى مفاهيمه الدينية وتزمته.
فوالده فلاح ضيق الأفق ذو عقلية جامدة بحيث لا يسمح لأولاده بأى نوع من
حرية الرأى اوحرية التصرف أوحتى الافصاح عن مشاعرهم. وكان جو
الكبت المطبق على برهومة فى المنزل يكاد يخنقه لكنه لا يجروء على
التزمر. ومن ثم أصبحت المدرسة هى المتنفس الوحيد لأحاسيسه المكبوتة.

فما أسهل أن يندفع برهومه مع كل عاطفة قوية أو حركة اعتراض أو تهكم أو سخرية بل إنه كان يقود بعض حركات الضجيج والفوضى في الفصل، حين كان يقوم بتقليد حركات المدرسين وكثيرا ما كانت تحركه الرغبة إلى ذلك في أثناء الشرح والمدرس منهمك بكتابة الدرس على السبورة. فجأة ينفجر تلاميذ الفصل في الضحك ويفاجأ المدرس بهذا الانفجار فيلتفت وراءه فلا يجد شيئا. لكن بمرور الزمن انكشف أمر برهومة وعرف أنه هو مصدر الضحك والإزعاج والفوضى في المدرسة. ورغم طبيئته وحب المدرسين والتلاميذ له إلا انه لم يكن يفلت من العقاب خصوصا وأنه لم يكن متفوقا في دراسته وكان من أرباب الملاحق أو الدور الثاني في أغلب سنين دراسته.

وحدث ذات يوم أن كان ناظر المدرسة يمر على الفصول ويتابع أوضاع المدرسين والتلاميذ من خلال النوافذ المتوحة على الطرقات ووجد برهومه يقلب صفحات مجلة مصورة أمامه وهو مستغرق في صور بعض الفنانات الجميلات غير مبال بالدرس الذي كان يكتبه الأستاذ على السبورة، فناداه الناظر خارج الفصل وطرده من المدرسة لحين حضورولى أمره.

خرج برهومه من باب المدرسة حزينا كسيف البال ليجد أمامه فلاحا ملتحفا بعباءة كالحة فتقدم منه وشكى له أمره فرق الفلاح لحاله. فطلب منه برهومه أن يذهب معه الى الناظر باعتباره والده. ودخل الرجل معه، ولكن المشرف ابراهيم الملاح كان يعرف والده تماما من كثرة ترده على المدرسة فراح يضحك، وصرف الفلاح بلباقة دون أن يجرح شعوره، واضطر برهومة أن يستدعى والده لمقابلة الناظر. وعند خروجي في بداية الفسحة في اليوم التالي وجدت برهومة يجرى ويشير إلى، تعالى شوف المجانين دول واسمع بيقولوا إيه؟ واسرعت معه فوجدت والده والناظر يتحدثان في الطرقة بصوت مرتفع:

-ايوه ياحضرة الناظر. أنا عارف إبنى فسدان وبتاع نسوان.

- ابنك ده لازم يتربى كويس

- معلهش يابيه. انا غلبت معاه والبركة فيك. اضربه اكسر عظمه وأنا على العلاج. ربيه إنت بمعرفتك

ولما لم نستطع الاستمرار فى سماع هذا الحديث الهازل ابتعدنا ورحنا فى الضحك والتندر على عقليات الأب والناظر معا. كان والده فلاحا متمتا لا يكاد يعرف القراءة والكتابة، ورث قطعة أرض عن أبيه واستطاع بجده وصرامته وتقديره ان ينميها وأن يزيد رقعتها. ثم جاءت قوانين الاصلاح الزراعى لنتيح لكبار الاقطاعيين أن يبيعوا أجزاء من اراضيهم التى تزيد عن مائتى فدان لصغار المزارعيين. وكانت فرصة ذهبية بالنسبة له فاشترى قطعة كبيرة ودفع مبلغا من ثمنها والباقى بالتقسيط على سنوات، وبدأ يكافح بجد ويجمع حوله اولاده للعمل فى العطلات والاجازات وحتى فى فترة بعد الظهر فى أغلب الأيام حتى يمكنه دفع الأقساط. وجعله ذلك يمارس عليهم نوعا من الصرامة والانضباط ويعتبر طاعته من طاعة الله. فأمره لا يناقش وطلبه لا يرد. كان يعتقد أن اتساع أرضه وزيادة ثروته هى بركة إلهية ونعمة من الله نزلت مكافأة له لشدة تدينه. وأخذ يتمادى فى التشدد بالنسبة لطقوس العقيدة المسيحية الارثوذكسية؛ ويفرض على جميع أفراد العائلة الصلاة والصوم شهورا طويلة كل عام. وسارت الأمور على نحو أشبه بمعسكرات العمل ولم يستطع برهومة أن يتخلص من هذا الجو إلا بالوصول للمرحلة الثانوية التى تبعده عن بلده ليسكن فى البندر وترحمه من العمل تحت رحمة أبيه.

وكانت فرصة لبرهومة أن يتنفس جو الحرية فيجلس مع زملائه أو يلعب معهم أو يذهب الى السينما التى كان يسمع عنها ولا يراها. لكن السينما حرام هذا ما يقوله ابوه فى كل مرة يذهب فيها الى البلد أو يزوره فى حجرته فيوصيه بأن يتجنب رفقاء السوء. وان يواصل الصوم والصلاة واياك أن تدعب الى السينما، الأفلام مليئة بالإغراء والفساد والخطيئة والويل لمن يخطىء فمصيره جهنم حيث النار لا تطفأ والدود لا يموت.

ويتقلب برهومه فى مخدعه بعد نشوة الفرح والسعادة والاندماج فى قصة الفيلم. كيف ينام؟ إنه يتذكر عبارات أبيه المنذرة بشديد العقاب، وبالعذاب فى الآخرة وهكذا يطبر من عينيه النوم ويظل قلقا حتى الصباح. فاما أن ينام ويتأخر عن موعد المدرسة أو يذهب الى المدرسة وهو خائر القوى لا قدرة لديه على التركيز. وهكذا تضيع منه بعض الدروس، ويفشل فى بعض الامتحانات وتكون الطامة الكبرى حين تذهب الشهادة إلى أبيه فيبدأ فى أداء شعيرة التكبىة والتكبىة فيلطم خديه ويمد يده الى الأرض أحيانا ويهيل على رأسه التراب وهو يصرخ:

" أنا عارف كل حاجة. انا شايفك طول الليل مكفى على وجهك والكتاب قدامك مقلوب. لأن قلبك بعيد عن الرب. أما زميلك يوسف فشاب مبروك دائما يطلع الأول لأنه مستقيم ومداوم على الصوم والصلاة "

وكان برهومة ينقل الى حديث أبيه فأضحك ويضحك معى. فإنا كنت. مستقيم حقا لكن بأسلوب بسيط وعادى أتابع دروسى وأكل ما يعجبنى وأرتاح وقت ما أحس بالحاجة الى الراحة. أزور اصدقائى وأشاركهم أرائهم البريئة وأذهب الى السينما وأعود لأحكى لأمى وأخوتى الكبار ما رأيت، ويسعدون بمشاركتى لهم دون حديث عن الجنة أو النار أو الشعور بالذنب والخطيئة. وكنت أضحك على هذا الرجل المخدوع الغافل الذى يعتبر نفسه نموذجا للرجل البار، ولا يدرى شيئا عن نتائج قسوته على أولاده جميعا. فتزمت الخطير الذى لا يفرق بين المرح البرىء والخطيئة ويثقل نفوس أبنائه بالإحساس بالذنب الذى ثقلت وطأته على نفس صديقى فجعلته ممزقا لا يستقر على قرار بين التفكير فى الجنة والخوف من النار.

كان لقاى به فرصة طيبة. فانا بطبعى لا أحترم هذا النوع من الأباء وأسخر من هؤلاء الوعاظ المنافقين وأؤمن بشىء واحد هو عقل الانسان وجهده وصدقه مع نفسه ومع الناس. فكنت أدعوه الى نسيان كل ما يقوله والده ويعتبره هذيان رجل مجنون ويعيش مثلى ومثل كثير من زملائنا

ويترك نفسه على سجيتها يتقبل من الأكل ما يطيب له ومن الحياة ما ينسجم مع طبعه ولا يكلف نفسه الا ما يرتاح له من الأعمال حتى ينقذ روحه من التمزق ويركز على دروسه كما نفعل نحن. كنت في معظم الأحيان أذهب إليه لأذاكر معه وأساعده في فهم بعض المواد وخصوصا ما كنت اتفوق فيه كاللغة العربية والإنجليزية. لكنه لم يوفق في الحصول على الثانوية العامة معي في نفس العام واضطر لإعادتها بينما ذهبت أنا الى الجامعة ودخلت كلية الآداب التي أحبها. وفي العام التالي حصل هو على الثانوية العامة بمجموع ضعيف، ورأى أبوه في هذا دليلا أكيدا على انحراف ابنه ففرض عليه أن يدخل مدرسة الحركة التابعة للسكك الحديدية. وفي نفس الوقت أخذه من يده الى بلد بعيد حيث عائلة قريب له وهناك خطب له ابنته الكبرى.

بالنسبة للأب كان المبرر أنها قرييته تخاف عليه وتشاركه حياته بطاعة ورضاء، والأهم من ذلك أن أباه المتوفى له قطعة أرض في البلد تركها لابنتيه وزواج برهومة من سميحة سوف يمكنه من امتلاك جزءا من هذه الأرض أيضا. أما برهومة فكان غاضبا لأن أباه فرض عليه أن يخطف فتاه لم يرها من قبل ولا يعرفها. وحين رآها لأول مرة أقتنع بأنها ليست بالجمال الذي يعجبه لكنه لم يستطع أن يقول لا.

ودارت الأيام وسار كل شيء في طريقه وتخرج برهومه وتسلم عمله كمعاون محطة وجاء يوم الزفاف، لنلتقى من جديد لأقول له ألف مبروك لكنه يميل على ويهمس في أذني ويقول " أتمنى أن يصل جنون أبي الى نهايته فيصدر قراره وان يزوجني أختها الصغرى أيضا لأنها أكثر جمالا وأن يضم الأرض كلها الى عصمته."

وهنا ضحكت وضحك معي وقلت، أن أباك رجل متطرف ولا تستكثر عليه هذا فأمثاله من المتطرفين يحلل كل شيء ويحرمه حسب مصلحته وباسم الدين يمكنهم أن يرتكبوا أكبر الجرائم.

2- بدر الزمان الشهرمانى

نادرالمثال، كانما جاء من عالم الخيال أو عالم الفضاء وحل بينهم زميلا ورفيقا ومفكرا ومنظرا وشاعرا ديونيسيا للحب والمتعة والحياة وفى لحظة لهو ومزاح أطلق عليه أحدهم اسم "بدر الزمان الشهرمانى" فربط بينه وبين عالم ألف ليلة ووجد الجميع ضالتهم فى هذه التسمية فارتاحوا لها ومضت السنون وتفرق الشمل وذهب كل منهم لحال سبيله. لكن لقاءاتهم لم تنقطع وصار هو يتقدم فى الطريق ويزداد اسمه تألقا وبروزا فى عالم الأدب والصحافة وازداد جاذبية للجنس اللطيف حتى انتهى أخيرا بالزواج من شابة فانتة الجمال متميزة فى تفكيرها ودراستها تعمل بالتدريس بأحد أقسام اللغات وتوثقت العلاقة بينهما عن طريق الاهتمام بالفن والأدب.

وجاءت الفرصة للسفرالى الخارج فى شكل بعثة لزوجته للحصول على الدكتوراه فى الأدب الانجليزى وذهب هو معها الى هناك ووجد لنفسه عملا فى احدى المنظمات الدولية ك مترجم وتابع دراسته لمناهج البحث والتربية وتقدم كل منهما فى ميدان عمله وعاد الى الوطن، عادت هى للعمل بالجامعة، وعاد هو للعمل بالصحافة – لكنه ترك لنفسه بصمة فى منظمة اليونيسكو جعلتهم يطلبون خبرته من وقت الى آخر، وصار ينتقل بين البلاد العربية يقدم علمه وخبرته وكانت حياته الزوجية تتقدم أيضا وتزدهر خصوصا بعد أن أنجبت له زوجته طفلة جميلة نمت وترعرعت فى جو عائلى عامر بالمودة والوفاق أشبه بخلية نحل لا تمل القراءة والكتابة والتفكير. أصابتها عدوى هذا المناخ فسارت فى نفس الطريق حتى تخرجت من الجامعة وتزوجت أجنبيا لتعيش معه فى الغربية وكان هذا الزواج برضاء وبركة الأبوين لكن زواجها ترك فراغا فى حياة هذه الأسرة دون أن يؤثر فى روح المودة والحب التى تربط بدر الزمان بزوجته نجوى فلازال يتغنى بها وينتقى أبيات الشعر الجميل لكى يتغزل فيها.

نجوايا يا نجوى يا أحلى من الحلوى

لكن دوام الحال من المحال، كان القدر يخبىء لهما شيئاً فمرضت نجوى فجأة بمرض عضال أخذ يفت من قواها حتى هدمها وأعجزها عن الحركة، وعاشت في هذه المحنة سنوات وهو يشاركها الألم والأحزان حتى عجزت قدراته المالية عن الانفاق ولم يعد قادراً على الاستمرار في علاجها من هذا المرض اللعين ولم يجد حلاً إلا أن يتركها في رعاية أمها ويذهب هو الى بلاد الخليج ليجمع لها مالا ينفقه على علاجها. هناك صار يعانى من الوحدة التى تشتد عليه حين يعود الى بيته أو يهجع الى فراشه.

طالت غربته وطالت سنوات مرض الزوجة دون أمل فى الشفاء وهويتحرق شوقاً الى يوم يعيده الى حياته المعتادة مع زوجته لكن هيهات وبدأ اليأس من شفائها يدب فى نفسه. لقد مضت عشر سنوات من الحرمان الشديد وهو المتزوج الأعزب الذى تفرض عليه الحياة والمجتمع قيوداً وقيوداً. فهو الرجل المحترم المحبوب الذى يرمقه الكثيرون ويحبون صحبته، ومازال هو الكاتب والناقد المعروف الذى يزوره الأدباء والشعراء، ومنهم بعض زملاء الدراسة الذين يعملون معه فى هذا البلد العربى وهم يزورونه من وقت لآخر ويدعونه لزيارتهم فى بيوتهم خصوصاً فى بعض المناسبات التى تجمع الكثيرين.

وبدأ بدر الزمان يندمج فى جو هذه الصحبة ويزور هذه العائلات وهو الأعزب الوحيد فى هذه الجماعة. وكان حديثه المقنع فى الثقافة والفكر جذاباً لكثير من أفراد هذه المجتمعات التى تعيش فى الغربية والذين يشتاقون فى عزلتهم الى ما يكسر جو الملل والضجر المحيط بهم فجعلوا يجتمعون من وقت لآخر فى شبه ندوة أسبوعية يحضرها الرجال والسيدات من المصريين. وفجأة وجد نفسه محاطاً ببعض الجميلات اللاتى يجاذبه الحديث بغرض لفت النظر - وفجأة وجد نفسه يميل إلى واحدة منهن - كانت امرأة جميلة فاتنة ملفوفة القوام تنسم بالشموخ والكبرياء - لكنها تتمتع بحيوية جارفة كالمهر الجامح التى تحتاج الى فارس يكبح جماحها رغم أنها متزوجة ولها بنتان تركتهما فى مصر مع زوجها الذى لم تعد تحبه أو

تحرص عليه، وأمامها هذا الرجل الذى يأسر القلوب بحديثه وهى تزداد ميلا له كلما عرفت عنه شيئا.

فقد عرفت أن زوجته مريضة وأنه يعمل فى المؤسسات الدولية اكثر من عشرين عاما ولا بد أنه قد جمع الملايين. لقد أشرف على الستين لكنه يتمتع بحيوية تتجلى فى بريق عينيه. إنه صيد كبير بلا شك، فأخذت ترمى شباكها وتحديثه عن زوجها الذى لا تحبه ولا تريد الحياة معه، وهو يسمع ويفكر. لقد أحييت الأمل فى نفسه وأشعلت فى كيانه الرغبة فأخذ يفكر فيها ليلا ونهارا. إن صورتها لا تفارق خياله فى النوم واليقظة. لقد استيقظ فى داخله وحش الشهوة المكبوت يريد هذه المرأة الجميلة الجامعة. وهكذا دخل فى مراهقة الشيخوخة. لقد هزته ليلى وهزت كيانه، وصار شيطان الكبت الجنسى يصور له اشياء لم تعد موجودة. إنه قادر بعد السنين على احتواء هذه الأنثى وتعويض حرمانه الطويل. وهى لازالت تغذى فى نفسه هذا الأمل حتى أعرب عن استعدادة للارتباط بها على أن يظل ذلك سرا لا يعرفه إلا اصدقائهم المحيطين بهم فى ذلك البلد. فهو لا يريد أن يجرح مشاعر زوجته المريضة وقبلت هى هنا الشرط.

وعندئذ عادت الى مصر فى أجازة قصيرة حصلت فيها على الطلاق من زوجها – ثم عادت الى هناك وبعد فترة العدة تم الزواج وصارت الأمور عادية فى السنة الأولى ثم أخذت هذه الجامعة تخطط للإستيلاء على كل شىء فاستت شقة – فاخرة فى هذا البلد العربى – وجعلته يشتري شقة فاخرة أخرى فى مدينة نصر- وفرشتها بأثاث فاخر حتى أنفقت الكثير مما لديه وعرفت أنه لم يكن يدخر كل موارده الكثيرة بل كان يرسل الجزء الأكبر منها لابنته ولزوجته لكى تواجه العلاج ولم يبق لديه إلا شقة قديمه فى أحياء القاهرة يمكن أن يعود إليها إذا حكم الأمر.

فأخذت تطالبه بأن يكتب لها شقة مدينة نصر – ثم أخذت تطالبه بأن يدبر لها مال تجدد به الفيلا التى تملكها وحينئذ سأله أحد اصدقائه المقربين لكن الفيلا دى باسم مين؟ أجاب باسم بنات زوجته. لقد زاره هذا الصديق

مرة أخرى. طرق الباب طرقا خفيفا حين رأى نور الشقة خافتا. وبعد قليل ظهر بدر الزمان يهتز كالقصبه فى مهب الريح ويتحدث بكلام متقطع مبجوح: ادخل - ادخل -

وبعد تردد دخل صديقه كمال وهو يتأمل مفارقات الأيام. لقد نادى بدر الزمان على زوجته ليلي كى تعد لهما كوبين من الشاي وهنا جاء صوتها قويا من الداخل: وأنت ماتعملش الشاي ليه؟

هنا خرج كمال وهو يضرب كفا بكف ويضحك وقديما قالوا شر البلية ما يضحك. إنها نهاية رجل طيب.

3- ركب الدرجة الممتازة

لا أدري كيف حدث هذا، ولكن المؤكد أنهم لم يقصدوا أى شىء مما حدث. اننى واثق من حبهم واحترامهم لى فهم تلاميذى الأصفياء والممتازين الذين حققوا أعلى الدرجات واستحقوا أن يكونوا معيدين بالقسم،

وانا واثق تماما أنهم كانوا يقصدون راحتي حين طلبوا إلى ألا اشغل بالي بحجز التذكرة لأنهم ايسكنون قريبا من المحطة. وقد أخذت كلامهم على انه قضية مصدقة وهأنذا جئت فى موعدى وركبت القطار.

القطار مزدحم ازدحاما شديدا اليوم، ورغم أننى فى عربة الدرجة الثانية فأنا لا أجد مقعدا خاليا فماذا جرى؟ لابد أن أبحث عنهم – ولكن كيف؟ إننى أتلفت هنا وهناك ولا أرى أحدا منهم على مرأى البصر. وها هو الكمسارى متجه ألى. تذكرة يا بيه. الواقع اننى لا أحمل تذكرة لأن زملاى وعدونى بحجز التذكرة وأنا أبحث عنهم، وطبعا تذكرة الجامعة هى الأولى الممتازة لكنى لا أجد مقعدا خاليا. قلت هذا لكى يفهم منه اننى استاذ بالجامعة – لكن الرجل شرع ينظر إلى نظرة جافة ويتأملنى – ويقول والله انا منتظر لما اشوف أخرتها معاك. معنى هذا أن الرجل يظن بل يعتقد أننى مزوغ – المهم أننى لم أهتم بنظرته المليئة بالترقب والشك وتركته إلى عربة الدرجة الأولى – ونفس الشىء حدث مع الكمسارى الثانى، بلعت كلامه ونظراته وأخذت طريقى حتى الدرجة الثانية مرة أخرى. لم أجد أحدا من زملاى ولم يعد هناك مفر. لقد وقفت أمام كمسارى الدرجة الثانية وهو أمامى لايحيد ولكى أثبت أننى أستاذ بالجامعة فعلا أخرجت النقود من جيبى وطلبت منه أن يقطع لى تذكرة أولى ممتازة. وهنا نظر الرجل الى نظرة اشد استغرابا ولم يكن لنظرته سوى تفسير واحد – إن الرجل يظننى مجنون والا لماذا أقف فى درجة ثانية واقطع تذكرة الدرجة الاولى الممتازة.

4- روى اللطيف

رودولف بونجوار دى مارسي – هذا هو اسمه الحقيقي الذى اختزل الى روى. كان أبوه يوغوسلافيا يعيش فى مصر ويعمل مدرسا للغة الفرنسية بالمدارس الثانوية. وكان رودلف كاثوليكا متمسكا بعقيدة أمه، أما أبوه فقد تلى عن هذه العقيدة وتزوج بامرأة يهودية، وعاش رودلف طفولته وصباه مع زوجة أبيه. ويبدو أنها كانت تقسو عليه بشده مما قضى على التماسك فى شخصيته وجعله غير قادر على الاستقلال بالرأى بل زرع فى نفسه

الميل الى الخضوع للآخرين. ويبدو كذلك أن قسوة زوجة الأب دفعته الى التماس العطف عند الخادمة انطوانيت التي كانت تعمل فى منزلهم بالاضافة الى ما يذكره عن قسوة أبيه وضربه اياه بسبب إهماله لدروسه. ورغم هذا فإنه لم يحصل على شهادة الثانوية العامة.

لقد جاورت هذا الرجل وعرفته فى إحدى المدن العربية حيث كنت أعمل مدرسا وكان هو يعمل فى شركة لبيع قطع غيار السيارات. لازلت أتذكره كلما شاهدت مسلسلا أو فيلما أجنبيا فى التلفزيون. اتذكر هذا الشخص الوجيه الممتلى حيوية وعنفوانا يذكرنى بأبطال الملاكمة. إنه رودولف جارالغربة، الخواجة المتزوج من زوجة مصرية، كانا منظرهما ملفتا بدرجة جعلتنا نتشوق إلى التعرف على هذه العائلة الصغيرة المكونة من الزوجين فقط. فقد كانا يملكان عربة صغيرة بيضاء ماركة رينو الفرنسية القديمة وعندما كان يجلس أمام عجلة القيادة كان يملأ الكرسى الأمامى دون أن يترك مكانا لأحد بجواره، وعندما تعرفت عليهما سألت الزوجة عن سبب جلوسها فى المقعد الخلفى فادعت أن بالباب الأمامى عطلان. كان منظرهما يلفت نظرا الجميع، ورغم كبر حجمه إلا أنه يلبس دائما جلبابا وطاقية لاتغطى كل رأسه. كان رجلا بسيطا فى مظهره لدرجة أننا كنا نتمنى الكلام معه لنعرف قصة حبه وزواجه من هذه الزوجة التى تبدو فى سن أمه، ويبدو من مظهرها ومن حديثها أنها غير متعلمة. فما الذى جمع بينهما وهو الخواجة الذى يجيد الحديث بثلاثة لغات منها الفرنسية والإنجليزية والإيطالية.

حين رأيته لأول مرة أدهشنى مرآه فهو يشبه أبطال الملاكمة والمصارعة من حيث امتلاء الجسم وانتفاخ عضلات الذراعين ونضارة الوجه ووسامته، بالإضافة الى سيارته الصغيرة التى لم يعد لها مثيل إلا فى الأفلام القديمة.

كنت أراه كل صباح وهو ينزل من البيت المجاور لنا فى ذلك البلد العربى الشقيق ثم يركب سيارته ويسير بها محشورا فى الكرسى الأمامى، وفى يوم الجمعة كانت تركب الى جواره زوجته تونه كما كان يناديها. وفى

ذات يوم تعطلت سيارتي ووقفت أنا وإبنى نحاول اصلاحها أمام المنزل دون جدوى فتقدم منا وأنقذ الموقف. وعرفت أنه يعمل فى احدى الشركات التى تتبع قطع الغيار وأنه يفهم اشياء كثيرة عن اصلاح السيارات لأنه ابتداء حياته عاملا ميكانيكيا.

وهنا حدث التعارف فقمنا بزيارتها مرة وقام هو وزوجته برد هذه الزيارة، ومع الأيام كانا يقضيان معنا سهرات طويلة يسردان لنا قصصا وحكايات كثيرة مشوقة كنا نستمتع بها فى بداية الأمر. لكننا اكتشفنا أن زوجته كثيرة العراك مع صاحبة البيت الذى يسكن فيه وتحتد الى درجة الجنون. والحقيقة أننا اكتشفنا ان هذه السيدة لها شخصية مزدوجة كما ان زوجها مزدوج الشخصية أيضا. وكانت معظم حكاياتها تدور حول صاحبة البيت التى تخرج الى سطح المنزل وهى عارية تماما لا يستر جسمها شىء، وتصدر أصواتا غريبة أحيانا بالليل وأحيانا بالنهار. وكانا يفسران ذلك على أنه محاولة منها لطردهما من منزلها. كذلك كانا يقصان حكايات مختلفة تبدو كمحاولة لإخفاء أسرار زواجهما وكنا نتظاهر بأننا نصدقها إلا أنهما كانا يختلفان فى بعض الأحيان فتقول هى شيئا ويقول هو شيئا آخر فتثور وتتفعل عليه وتتعارك معه، ونقوم نحن بفض هذه الخناقات، والعمل على تحقيق المصالحة بينهما ويعودان معا فى وئام.

كنا فى الصيف نذهب الى الشاطئ معا- وكان هو يجيد السباحة ويلعب مع أولادى الصغار ويعلمهم العوم وأحيانا كان يحملهم واحدا بعد واحد ويعوم بهم فى الماء وكان الأولاد يفرحون بذلك. كان بطلا فى السباحة وعرفت أنه كان بطلا فى البوكس والمصارعة وشيئا فشيئا بدأت لاحظ أشياء غريبة. إنه كالطفل لا يتصرف إلا بإرادة زوجته وأثار هذا اهتمامى فرأيت ان هناك فارقا كبيرا فى السن. فهى تكبره بسنوات طويلة الى جانب انها دميمة ومصابة بالوسوسة، تظن ان الناس يشمئزون منها

لأن فى يديها بقع بيضاء تشبه البهاق. وكانت تبالغ فى هذا الإحساس، ويبدو ان هذه كانت حيلة تستخدمها لإبعاده عن الناس.

المهم اننى لا أكاد أفهم سر خضوعه واستسلامه لرأيها حتى عرفت من خلال الحكايات المتضاربة التى تصدر عنهما. انها كانت تعمل شغالة فى بيت أبيه، وكانت تعامله بعطف وتمكنت من السيطرة عليه خصوصا بعد موت أبيه إذ تمزق شمل الأسرة فهاجر أخوه إلى البرازيل وكذلك اخته وزوجها، واستغلت هذه الحيزيون تأثيرها عليه حتى وافق على الزواج منها. لكن المثير للدهشة هو هذا الخضوع الأعمى الذى يشبه خضوع الطفل الأبله لهذه الكركوبه الدميمة حتى أمواله يضعها باسمها فى البنك والشقة باسمها وكل شىء رغم انها لم تتجب له أطفالا.

كل هذا العملاق الجميل المنظر كيف يخضع ويستسلم لإرادة هذه الدميمة الرعناء. كنت أرى واتساءل ولا اصدق استنتاجاتى واقول لى نفسى ربما نكون مخطئين. أجل أنا وزوجتى وكل من يعرفونه ويعرفون زوجته. وكان مايربطنا به حبنا له لطيبته الواضحة وبساطته الطفولية وتعلق الأطفال به، وسخاءه فى مساعدة أى انسان يحتاج الى خدماته. لم اصدق خضوعه الى هذا الحد حتى جلس معى ذات مساء وكنا فى حفل عائلى بهيج ومعنا بعض الأصدقاء وأخذنا نرؤى النوادر التى صادفت كل منا وفجأة أخذ يحكى لنا هذه النادرة – قال:

كانت زوجتى تعطينى عشرة قروش يوميا مصروف جيب أدفع منها اجرة الأتوبيس ذهابا وايابا لعملى وفى يوم من ذات الأيام وانا واقف فى الاتوبيس اقترب منى الكمسرى فمدت يدي فى جيبى كالمعتاد لأخرج العشرة قروش لكننى لم أجدها، ورأيت بجانبى شابا هوى لى أنه لص فنظرت إليه وقلت له انت حرامى.

- يا أستاذ عيب ماتقولش كده
- انت سرقت من جيبى عشرة قروش
- يااستاذ أنا مش حرامى.

- ولم يقتنع رودي بهذه الحجة فلکم الشاب المسكين بقبضته العنيفة مما جعله يترنح ثم أمسك به واصر على أن يذهب معه الى قسم البوليس وبعد تحقيق طويل وأخذ ورد نظر رودي الى البانطلون الذى يلبسه واكتشف انه نسي العشرة قروش فى بنطلون آخر خلعه قبل خروجه من البيت لكنه لم يجرؤ على ان يبوح بهذا السر للمحقق.

5 – حالة غش

مسرحية قصيرة

قاعة فسيحة مكتوب علي بابها (لجنة تصحيح اللغة العربية) الوقت صباحا والمدرسون لا يزالون يتوافدون واحدا بعد الآخر –

يدخل الأستاذ مقبل دون أن يلقي تحية الصباح على زملائه وزميلاته وهو يزفر بشدة زفرات عالية مسموعة. يمد يده يمسك بكرسى ليجلس عليه وهو يقول بصوت مرتفع أعوذ بالله – أعوذ بالله

علي: الجو لسه بارد ياشيخ مصلح

(هكذا ينادونه دائما من قبيل المزاح)

مقبل: الستات يا أستاذ ... أعوذ بالله.

أحمد: (يضحك) تانى يا شيخ مصلح؟

مقبل: أعمل ايه يا سيد؟ مش طابق. فى الشارع مش عارف

اركب أتوبيس. ما فيش حياء يا ناس؟

(مدرستان. تنتظران إليه بغیظ ثم تضحكان معا فى وقت واحد

ضحكة ساخرة مثيرة)

علي: صبرك يا شيخ مصلح... يومين وترتاح من المناظر

اللى ما تعجبكش.

مقبل: وده حال يعجب مين ياأستاذ؟

أحمد: يعجب الأزواج طبعا ...

مقب ل: دى مسخرة. ده كفر.. (ثم يغير لهجته ويتكلم

بالفصحى) هذه فتنة لعن الله من أيقظها
على: (يحاول أن يستثيره أكثر) بعض الأزواج يحبونها
فاتنة..

مقبل: أخص. بقه دول رجاله؟ إزاي يسيبوا بناتهم
وستاتهم كده فى الشوارع. النهود بارزة عارية
كالكمثرى... والأذرع المرمرية تفتن الألباب
(بحركات تهكمية) والأثواب تكشف عن سيقان
بلورية. ثم نلوم الشباب.. يا ويلهم من نار جهنم..
يا ويلهم!

على وأحمد(معا): أيوه كده الله يفتح عليك ...
رئيس الحجره: جت على هواكم دى ... خذ بالك يا شيخ
مقبل العزاب عايزين يجرجروك فى الكلام ...
مقبل: دول مساكين وحياتك ... الفتنة تحاصرهم من
كل جانب ... بالله عليك كيف تسمح بوضع
البنزين جنب الكبريت ... هذا فساد فى الناس.

مدرسة (1): (ترتدى ملابس عصرية) وانت إيه اللي
يخليك تبطلق فى الراكبة والنازلة؟
(الجميع يضحك بصوت عال).
على: قفشة حلوة قوى يا شيخ مقبل.
مقبل: (يشير إليها بيده) أنها تدافع عن نفسها ...
مدرسة (1): يا أخى خليك فى حالك واترك الناس فى
حالتها ...
مقبل: لكن هذا إنحراف. فساد. وأيم الله.. فساد.

مدرسه (2): الله ينظر للقلوب يا مولانا ...

(الجميع يضحك ويفهقه)

أحمد: برافوا أبلّة عفاف.. لأ. حلوة دى يا شيخ مقبل ...
مقبل: هذا انحراف وفساد

أحمد: روق يا أستاذ مقبل.. تعالى يا عبده هات
واحد شاى مضبوط للشيخ مقبل ... أنا
هاسألك سؤال وجاوبنى عليه بصراحة ...
مقبل: (فى تشكك) أسأل يا سيد؟

أحمد: تفكر البلد يبقى شكلها ايه لو كل الستات
لبست عمم وبدأوا يمشوا فى الشارع وهم
شايلين حاجات كده زى البلايص على
رؤوسهم؟

مقبل: ويمشوا ليه فى الشارع؟ الستات مكانها البيت
مدرسة (1): عشان حكمت على مراتك وسجنتها فى البيت
عايز تتحكم فى الستات كلها ...

مقبل: وليه ما تقعدوش فى البيت وتخففوا الزحمة؟
مدرسة (2): احنا مبسوطين كده. ورجالتنا مبسوطين
خالص وان كنت زعلان روح أقعد فى البيت
ويا المحروسة عشان ما تشوفش حد ولا حد
يشوفك (تدخل مدرسة ثالثة)

مدرسة (3): أوه ... الحدوته بتاعة كل يوم. ياعم كفاية..
سبينا نخلص شغلنا ونروح لبيوتنا
مقبل: اتفضلى يا مدام، خلصى.

(يلقى لها بكومة من الورق وكذلك يفعل مع
الباقين ثم يمسك بورقة ويأخذ فى تقلبيها
فيكتشف وجود ورقة أخرى فى داخلها) غش
قلت ان الدنيا فسدت ... وان الفساد عم
(الجميع ينظر إليه وهو يرفع الورقة)

ها هو الشاهد والبرهان

على: خير يا شيخ مقبل ...

مقبل: ومن أين يأتى الخير يا سادة.. انه غش فاضح. حالة

غش. حالة غش. جريمة خطيرة يا أستاذ! تلميذ

فى الإعداية ترك موضوع الإنشاء بعد ان غشه. مصيبة
وأى مصيبة!...

رئيس الحجره: (يمد يده) ورينا يا شيخ مقبل.

مقبل: أنظر يا أستاذ موضوع التعبير منقول بالحرف من
الورقة؟

على: يا شيخ سيبك ما تعطلناش. هو فيه امتحان

بيخلى من الغش

مقبل: كيف يا أستاذ؟ من يسمح بالغش يكون مجرماً
بل خائناً لوطنه ودينه.

رئيس الحجره: هدى نفسك بس...وبلاش زيطه ...

مقبل: حتى انت ياريس ... كيف تترك الغش يصل الى
هذا الحد. لابد من تحقيق فى هذه الورقة

ومعاقبة الطالب والملاحظين.

على: نشوف الطالب كتب ايه الأول ...

(يمسك بالورقة ويقرأ)

(ان تربية الشباب هى مسئولية البيت والمدرسة. لكن ما ذنب

الذين لا يجدون رعاية البيت أو المدرسة؟ إن أبى قد طلق

أمى منذ سنوات. وتزوج بغيرها.. وزوجة أبى مشغولة

بأولادها ... ولا يتسع وقتها لى .. وأبى مشغول بعمله ...

وأنا لا أجد فى البيت مكانا يضمنى. ولا أحس فيه بشىء

غير الضيق والوحدة. – أما المدرسة وما أدراك ما المدرسة

كل ما فيها يدعوا للغم والكآبة. الشبابيك بلا زجاج والسبورة

تحتاج الى علاج والجدران تأكل من فوقها الطلاء وظهرت

فيها الفجوات والشقوق ... والمدرسون لايهتمون بإجابة كل أسئلتنا.. وكل إهتمامهم بالدروس الخصوصية.

مقبل: شفتم الإجرام والوقاحة؟ إنه يتهم المدرسين ... انه يتهمكم جميعا بالإهمال والتقصير

مدرسة (2): والنبى يا شيخ مقبل ... ده باين عليه غلبان ومش ناقص أذى.

مقبل: أبدا لا بد أن يجازى بأقسى عقوبة ويصبح عبرة لغيره.

أحمد: مهلا يامولانا.. ما توديش الملاحظين فى داهية. ذنبهم إيه؟

مقبل: ذنبهم إيه؟ التستر يا أستاذ... والتستر على الغش جريمة. أمثال هؤلاء لا يصلحون معلمين. أمال الشباب فسد ليه؟

رئيس الحجره: ما تكبرش الأمور، ياشيخ مقبل. وريح دماغنا دى حاجات بتحصل كثير من العيال.

مقبل: (يصيح) أنا أقسمت (يخطف الورقة من يد رئيس الحجره ويهرع لرئيس اللجنة بعد ان يفشل الجميع فى إقناعه)

(يأتى رئيس اللجنة إلى الحجره ويقف محايدا على أمل أن تنجح المعارضة فى إسكات الشيخ مقبل وحين يجد إصراره على التحقيق يأخذ الورقة من يد الأستاذ مقبل ويخرج بها لفحص الكشوف ثم يعود بعد قليل).

رئيس اللجنة: أسمع يا أستاذ مقبل ... انت ما زلت مصرا على إجراء هذا التحقيق؟

مقبل: طبعا يا أستاذ

رئيس اللجنة: ما بلاش اذى ... وده عيل وغلط

مقبل: لا يا أستاذ..... لا بد من مواجهة الفساد.

رئيس اللجنة: أمرنا الله يا شيخ مقبل مادمت انت مصر
على موقفك

مقبل: بكل تأكيد. ياريس

رئيس اللجنة: يبقى افضل أدلى بأقوالك فى هذا الموضوع
مقبل أى أقوال يا أستاذ؟

رئيس اللجنة: بمراجعة الكشف وجدنا أن حضرتك كنت مراقب على هذه
الحجرة أثناء امتحان هذه المادة.

مقبل: لا يمكن ... غير مقبول.. انا لا أسمح بالغش. ودى مسئولية
الملاحظين؟

رئيس اللجنة: إنت المراقب عليهم ومسئوليتك أكبر. (يقدم له الكشف)
أقرأ ... الأستاذ عثمان جابر والأستاذ عليوه عبد الحميد.
والمراقب الأستاذ مقبل حسن.

مقبل: دى حكاية مدبرة ... دى مكيدة يا أستاذ
(يلتفت للمدرسات الشامتات) عملوها فينا
أولاد الحرام

6- الذئب

رقدت فى فراشى واستلقيت عليه مستسلما للأفكار كعادتى عندما يفر من عيني النوم. وكنت فى مثل هذا الوقت من الليل حين ينتابنى القلق. وتهيج فى نرأسى الخواطر والأحاسيس. كنت أعيش ما يقرب من ساعتين فى معركة الأفكار المخيفة لا أكاد أسمع شيئاً غير نباح الكلاب الذى يشق الى أذنى المسافات البعيدة حتى ينفذ من الحيطان. أو كنت أسمع نحنحة الخفراء وهم يمرون فى الشارع من وقت الى آخر. أما هذه الليلة فقد استلقيت على الفراش والليل يقترب من منتصفه، وما كدت كعادتى أستسلم للأفكار حتى ترامى الى صوت أتى من بعيد يقول " يمكن قتلها " وأجابه صوت آخر " لا تستبعد " وأحسست بشيء غريب يدفعنى للوقوف، ويدفعنى الفضول الى استراق السمع وقلت لأنفسى لا بد أن شيئاً خطيراً قد حدث. فمن

هو القاتل.. ومن هي القاتلة؟ ولم يطل بي التفكير ففتحت النافذة وأخذت أطل برأسي وأمد رقبتى الى الأمام لأرى صاحب الصوت.

كانت ظلمة الليل حالكة مخيفة وكانت برودة الشتاء القارس تزيد من رهبته. كان الجو كله يبنىء بالخوف والرهبة. وما زلت فى مكانى أحملق بعينى، اريد أن أشق بها حجب الظلام لأرى صاحب الصوت.. بيد أننى لم أر شيئاً بالرغم من أننى اسمع همسات مستمرة ووقع اقدام مقبلة نحوى. انتظرت لحظات قصيرة حتى صارت هذه الاقدام تحت النافذة. وحينئذ تتحنت ثم صحت " ماذا حدث يا؟ " عندئذ توقفت الأقدام وعرفت من حركتهم إنهما رجلان قال أحدهم " أبو حسن. " يقال ان إمرأته غابت عن البيت من قبل المغرب. ولم تعد وعرفت من صوته أنه الخفير مشعل يتحدث الى رجل لم اتبينه. ثم مضى الإثنين فى طريقهما وبقيت فى مكانى أتأمل سكون الليل الرهيب.. ظلام دامس. وبرودة شديدة. سكون مطبق. لعل سراغامضا يختفى فى جوفه. لكن كل ما تخفيه ظلمة الليل سوف تجلوه اشراقه الصباح. لم يكن هناك أمل فى معرفة السر فى هذا الوقت بالذات فعدت الى فراشى.

كنت أنتظر النوم وطال انتظارى فرحت أفكر مليا فى هذا الأمر وحاولت ان ارسم صورة فى ذهنى لهذا الزوج. فأنا أعرفه تماما: محمد ذو الرأس المبروم. شاب متوسط الطول، نحيف الجسم سىء الأخلاق.. يصفه البعض بأنه سافل، طويل اللسان واليد أيضا. كان يخطف كل ما تصل إليه يده. واستهواه هذا الطريق المنحرف وسار فيه حتى أجاد فنون الخطف حتى لقبه أهل القرية " بالذئب " لما بينه وبين الذئب من براعة فى التخفى والخفة واللؤم والذكاء.

كانت عادته فى السرقة هى: أن يزحف على يديه وركبتيه ويتسرب من زراعة أبيه الى زراعة جيرانه أو جيران جيرانه كما يترأى له عندما ينوى ان يسرق شيئا.. ويظل يزحف حتى يصل الى بغيته. وكانت كل

سرقاته تكاد تنحصر فى انواع المحاصيل سواء كانت قطنا أو قمحا او ذرة. ففى القطن كان عندما يقصد الى مزرعة يزحف على بطنه فى الفترات، يتلوى فيها كالثعبان حتى يصل اليها فيأخذ فى جمع القطن فى عبه حتى يمتلىء فيعود الى حقل أبيه بنفس الطريقة وهناك يفرغ ما معه فى كيس صغير أعده لذلك ويخرج به من زراعتهم عائدا الى البيت وبهذا الطريق يخفى جريمته فلا تقوم عليه حجة للإدانة. لكن الناس كانوا يعرفونه من كثرة الشبهات التى دارت حوله ومن كثرة تردده على الدكاكين المتطرفة فى القرية التى تتحول أحيانا الى أوكار للصوص والخطافين ومن ثم أخذ الناس يراقبونه ويتربصون به. ولكنه كان إذا - وقع فى يد شخص ما متلبسا بالسرقه، راح يمويه ويراوغ حتى يفلت منه وأمام التقرير والتهديد كان يبدو كالثعلب تماما فيرتمى على الأرض متقطع الأنفاس - جاحظ العينين حتى يبدو كالمغمى عليه بل كان يتظاهر بالموت أحيانا بدرجة تلقى الرعب فى نفس الرجل فيتركه مخافة ان يتهم بقتله او بمحاولة ذلك على الأقل.

وهكذا أفلت من سقطات عديدة ليعود الى هوايته يمارسها من جديد. وكان إذا حدث وذهب أحد الناس يشكو لأبيه ويذكر له حوادث معينة وقعت من ابنه راح الأب يرفع يديه الى السماء ويدعو الله ان يخلصه من هذا الإبن الشرير ولكى يظهر براءته وغفلته عن أعمال ابنه المنحرف، كان يتجه الى الشاكي ويقول له فى صوت يشبه الحشرجة " ياناس اقتلوه.. احبسوه.. ارموه فى داهية بعيد عنى. ابنى ما شى على غير طوعى. وتقع هذه الكلمات كقطرات الندى البارد على نفس الشاكي فتهدأ ثورته ويعود قانعا بالصفح والغفران.

لكن الواقع كان يخالف ذلك تماما. فإذا كان حقا ما يقولون من أن - الشبل ابن الأسد فان الخنزير من صلب خنزير. فأبوه يزرف دموع

التماسيح ليموه على الناس. وبهذا يخلص من لومهم له فى الوقت الذى هوفيه راض كل الرضا عن هذه الأعمال. فابنه اعتاد ان يعود الى البيت ومعه كل ما سرقة من عباد الله. ففى زمن القطن مثلا يكون المسروق قطنا. وهكذا زمن القمح يكون المسروق قمحا وكان بمجرد ما يدخل البيت بعقب القطن مثلا كانت تأخذه منه أخته سمارة أم العيون الجذابه الخضراء ثم تضعه فوق راسها الصغير الجميل وتذهب به الى الدكان وبعد ان تبيعه تعود إليهم ومعها الشاى والسكر ثم تنقد أباهما باقى الثمن وتعطى أمها قرطاسا من اللب تتسلى به وهكذا يشترك - الجميع معه فى الجريمة ويباركون سعيه.

وقد سبق لمحمد الزواج بغير خيرية التى اختفت الليلة.. تزوج مرة واحدة وهو لم يتعد بعد الخامسة والعشرين من حسنية بنت الشيخ خلف وهو تاجر بقالة رقيق الحال يقع دكانه فى مدخل البلدة ويشرف من هذا المكان على الداخل إليها والخارج منها. وكان هذا الدكان هو المكان الذى رأى فيه حسنيه وهو يتردد عليه.. وقد تم الزواج منها سريعا وبعد ستة شهور فقط تم الطلاق ايضا. ولكن أسباب الطلاق الحقيقية ظلت سرا لا يعرفه أحد غير الزوجة المطلقة وأمها وأبيها. كانوا يخفونه خوفا من تهديد محمد ووعيده لهم. ويكتفون بان يقولوا لمن يسألهم بانها لا تستريح مع أمه وهو يكثر الخناق معها ويضربها كل ليلة. ويهددها بالذبح بالسكين ... وعندما عادت الزوجة الى بيت أبيها وعرف انها انفصلت عنه وتحررت من قيده اذ ذاك أحس بالفشل. والفائشل حقوق، وحقده لا يقف عند حد. وقد انطلق محمد كالكلب المسعور يريد ان يفعل شيئا يروى به غلته وقبل ان يمض على حادث الطلاق ثلاثة أيام انسل فى ظلمة الليل وسكونه ومد يده بالتخريب فأشعل النار فى جرن القمح الذى يملكه والد مطلقة.

وارتفعت السنة النار تأكل القش والقمح وأخذت تمتد حتى كادت أن تمسك بجلباب صدقى ابن الشيخ خلف صاحب الجرن ولكن. قبل ان تلحق

بثوبه هب من نومه مزعورا وهو يصرخ كالمجنون. واشتدت النار وتشعبت السنتها وكادت - تمتد الى مجرنة القرية كلها فتحرقها. لولا أن الناس هبوا من نومهم على الصراخ مزعورين وأخذوا يجرون نحو الحريق.. بدأ البعض يبعد القش عن السنة النيران والبعض الآخر يغرف المياه بالأنية ويصبها على النار. وكانت النساء والفتيات يحملن جرارهن المليئة بالمياه ويشاركن بها في إطفاء الحريق وهكذا اشتركت القرية كلها في اخماد النار قبل ان يحضر رجال المطافى.

وجه الحاج خلف صاحب القمح المحروق. الإتهام الى محمد حسن.. إنه هو المتسبب فى هذا الحريق المدمر الذى أوشك أن يدمر محصول القرية كلها، وأيده الناس كلهم فى هذا الإتهام بالرغم من أن محمد لم يوجد فى مكان الجريمة وبحثوا عنه فلم يجدوه فى القرية كلها. وكان هذا الفرار من أكبر الأدلة على قيامه بهذه الجناية وأجمع الناس على إحضاره وأمسكوا بأبيه وقدموه للضابط.. وبدأ معه لكن البعض تدخل ليتم الصلح ودفع ابوه التعويض وتنازل الشيخ خلف عن شكواه وهكذا نجا محمد من الحبس هذه المرة أيضا.

رحت أتأمل هذه الصورة فى ذهنى. ما هى دلالتها؟ هل يعنى ذلك أنه هو القاتل وهل اختفاء عروسته فى سابع يوم من زواجها يعنى أنها مقتولة وما سبب القتل؟ لقد قيل إنه تزوجها بعد حب طويل دام سنتين. كان يتردد أثناء هذه المدة على بيتهم، يخرج ويدخل فى صحبة أخيها الأكبر " خليل " وقد قام معه هذا الأخ بالسرقة والخطف فماذا إذن؟ ربما الأمر أهون من ذلك بكثير. وقد لا يعدو هربا من البيت الى مكان ما.. إن أحدا لا يعرف الحقيقة. عند هذا الحد بدأ النعاس يثقل أجفانى وكان الليل يسرع الى نهايته، فاستسلمت للنوم.

وفى الصباح تحول الهمس الى كلام مسموع وأخذت القصص تتري هنا وهناك حتى وصل الخبر الى أسماع المسئولين وكان المبلغ هو ... محمد حسن نفسه زوج خيرية.

كانت غرابة القصة وغموض سرها يحيران الجميع. لقد تحير ضابط المباحث وعلت الدهشة وجهه وهو يسمع من محمد أن زوجته إختفت فى اليوم السابع لزفافها. وفى البيت تعيش معها أم الزوج وأخته. أمر غريب يدعو الى الحيرة والشك، وقد انجلت دواعى الشك والإرتباك بعد أن تعب رجال المباحث من البحث دون أن يجدوا لها أثرا، عندئذ إتجه الضابط الى الزوج واتهمه بقتلها ثم قبض عليه، وخلال ساعات قام بمحاصرة المنزل وتفتيشه وقد أنكر الزوج وباقى أفراد العائلة مسألة القتل ولكن الدماء التى كانت تتناثر فى ركن حجرة نومها ألجمت ألسنتهم جميعا فأشار الضابط يحفر أركان الحجرة وعلى عمق متر تقريبا من سطح الأرض وجدت ملابس ملطخة بالدماء ولكن الجثة لم يعثر لها على أثر..

وعندئذ ألقى الضابط القبض على الأم والأخت أيضا واتهمهم جميعا بالإشتراك فى الجريمة مع محمد ولكنهم أصروا على الإنكار ورفضوا أن يدلوا بأى إشارة عن مكان الجثة لكن رجال المباحث بدأوا يفحصون الأرض حول المنزل حتى رأوا قطرات – صغيرة متناثرة من الدماء، وراحوا يفتفون أثرها فى الأرض والزرع المروى الذى يجاور البيت حتى انقطع أثر الدماء عند ملتقى ترعة مياه. كانت هناك مجموعة من الكلاب تحوم حول المكان فأوحى ذلك بأن لابد أن تكون الجثة مدفونة هنا وقد وجدت الجثة مدفونة فعلا فى جانب الجسر بمحاذاة سطح الماء الذى يجرى فى الترعة وكانت الرأس مفصولة عن جسدها وفى جبينها طعنات سكين كبيرة فى هذه – اللحظات وجد محمد نفسه وقد احتوته الجريمة. ولم يعد هناك مفر منها فإعترف بالقتل وزعم انه طعن فى رجولته.

وبعد هذا انتقل الأمر الى القضاء ووقف محمد أمام القاضى يحكى قصته.. ان خيرية ليست الزوجة الأولى فى حياته فقد تزوج قبلها حسنيه بنت الشيخ خلف البقال وانفصلت عنه بعد ستة أشهر من زواجه بها لأسباب عائلية. وهنا أمر القاضى بإستدعاء حسنيه أمامه لتدلى بأقوالها فيما يختص بأخلاق محمد ومعاشرته لها وكشفت حسنية عن السر الذى أخفته تحت التهديد والإرهاب واحتفظت به مدة سنتين. لكن محمد راح يعارض مطلقته ويقول لها أنها تتجنى عليه وانه كامل الرجولة. غير أن تقرير الطبيب الشرعى جاء مؤيدا لأقوالها، وعند مواجهته بذلك نكس محمد رأسه وراح يخفى وجهه بيديه ويجھش بالبكاء ويقول:

نعم قتلتها لأنها قالت لى " انت مش راجل "

*

7- ورقة بخمسين جنيها

خرج كمال من باب الجامعة الرئيسي ومال ناحية الشمال، ثم وقف بجوار الكشك الذى يقوم هناك. أخرج ورقة من جيبه ثم فضها وأخذ يقرأ. الإسم كمال أديب. ليسانس آداب تاريخ بدرجة جيد. دفعة يونيه 1958 ثم هز رأسه وطوى الورقة ووضعها فى جيبه. تجهم وجهه وغامت عيناه.. وأخذت أساريه ترتعش بثورة من الغضب المكتوم. هذه هى المرة الثامنة التى يأخذ فيها كمال مثل هذه الورقة من الكلية. وفى كل مرة كان يتقدم بها الى المسابقات.. مسابقات التوظيف التى يعلن عنها ديوان الموظفين والوزارات المختلفة. يجمع أوراقه ويدخل المسابقة ويؤدى الإمتحان.. وينجح ويظل اسمه فى كشوف الناجحين مدة طويلة. ثم يتلاشى وتنبخر الكشوف دون أن يحصل على وظيفة. ودون أن يعرف لماذا اختفت وأين. ويظل فى حيرة حتى إذا ما ظهرت مسابقة جديدة هرع إليها بفارغ الصبر. وهكذا مرت شهور طويلة وعديدة وهو ينتقل من ديوان الى ديوان ومن مسابقة الى أخرى حتى هذه اللحظة التى جاءت به ليحصل من الكلية وللمرة الثامنة على هذه الورقة.

وقف لحظات قليلة بجوار الكشك، وأخذ يدور بعينه ويتلفت حوله ينظر الى حشود الطلبة الداخلين. والخارجين والى العربات التى تمرق شمالا

وجنوبا. وجد نفسه مدفوعا الى عبور شارع الجامعة. ودون هدف محدد حملته أقدامه الى الناحية الأخرى. ووجد نفسه يسير بمحاذاة حديقة الأورمان. لا بأس! فهو فى حاجة الى المشى. فقد يخفف عن نفسه الضيق والتوتر. وهو بحاجة الى البعد أطول وقت ممكن عن جو الحجرة التى يعيش فيها فى احدى شوارع الجيزة الضيقة والمزدحمة. سار فى طريقه بخطوات بطيئة، يرفع قدما ويحط قدما، حتى يخيل لمن يراه أنه يحمل شيئا ثقيلًا أو أن أقدامه مغروزة فى تل من الرمال. وكان هو كالتائه لايهتم بما حوله ولا ينظر إليه. وكان يتحرك بجسمه الممتلىء حركة بطيئة وكأنه فى حاجة لمن يدفعه الى الأمام. كل أعصابه تنتفض وترتعش.. والعرق يتصبب من جبينه. شعور غريب بالارهاق. وحركته بطيئة. كأن عضلاته قد أصابها شىء من الجمود أو الشلل. ليس فى حركته سهولة أو انطلاق.. على غير عادته. ويبدو أنه أدرك فجأة هذه الحالة.. فقد توقف ودار حول نفسه ينظر الى المسافة التى قطعها فى دقائق معدودة. لا تكاد تصل الى عشرة أمتار. وخيل إليه أن المارة ينظرون إليه والجلوس يتأملونه. فبدأ بشد رجليه بقوة ويرفع قامته ويسير بسرعة أكثر.. لكن منظر الحديقة شده بقوة. الحشائش الخضراء. والشجر والظل. فى فصل الربيع. فعادت حركته الى الإبطاء.. ولكنه أخذ يطيل النظر إلى داخل الحديقة ويتفرس فى الوجوه وفى الأشجار وفى كل شىء. وكأنما يبحث فيها عن شىء يخصه.

وقع بصره على شاب وفتاة يجلسان على الحشيش الأخضر. وفوقهما شجرة كبيرة تلقى عليهما بظل ظليل. يحميهما من شعاع الشمس التى بدأت تزداد حرارتها مع حلول شهر يونية وبداية الامتحانات. وشده المنظر فوقف يتأمله. ورغم أنه كان قريب منهما فلم يبدو عليهما أى إهتمام بوقوفه أو نظراته إليهما. كانا غارقين فى حديث طويل.. تقطعه الضحكات. والكتب ملقاة بجوارهما. إنهما زميل وزميلة. ولعلمها حبيب وحببية. ولم لا إن الزمالة والمذاكرة. هى فرص لخلق علاقات الصداقة والحب.. وكثيرا ما كانت سببا فى جمع شتات قلوب متعطشة الى الحب والحياة.

ليس ببعيد اذن ان يكونا حبيبين.. يتكلمان عن الحب والزواج. ويعيشان في الأحلام السعيدة. لقد عاش هو نفسه التجربة. وكانت اللقاءات فى هذه الحديقة حيث تحولت الزمالة الى صداقة. والصداقة الى حب. ومراجعة الدروس الى نجوى وأحلام. هنا اتفق مع نوال على الزواج ومازال حتى الآن يجد ويسعى حتى يحقق هذا الأمل. لكن من أدراها هى بحاله.. ربما بدأت تشك فى إخلاصه.. لقد مرت شهور طويلة اقتربت من العام منذ ظهور النتيجة ولقاءهما الأخير.. هذه الشهور كفيلة بأن تثير الشك وتؤكدته فمنذ ذلك اليوم لم يتصل بها. ولا يعرف كيف يمكنه الإتصال دون أن يسبب المتاعب والأقاويل.. فهى تعيش مع والديها بعيدا جدا عن القاهرة. وهما لا يعرفان بسر العلاقة بينهما. فكيف يستطيع ان يغامر بالكتابة إليها فقد يضعها ذلك فى موقف حرج.. فكيف يجنبها الإحراج والأقاويل السيئة. وهو غير مستعد لتحمل أى مسئولية الآن. لأنه مفلس وخال شغل. ولا يبدو أنه سيحصل على عمل فى وقت قريب حتى الأمل ليس لديه منه شىء يمكنه من بذل الوعود.. فكيف يمكنه ان يكتب لها. وما الذى يمكن أن يقوله....

شهور طويلة مع الشوق والألم والأحلام. الأمل التى كانت تداعبه فى البداية. أخذت تتلاشى شيئا فشيئا مع تجارب الدواوين والجرى وراء الوظائف. انه يريد ان يراها ويجلس إليها. ويحكى لها عما فى نفسه، وفى نفسه أشياء كثيرة يريد أن يحكيها لها. عن المساعى الخائبة. والوظائف التى لا تكاد تبرق حتى تتلاشى كالسراب. بعد أن تكلفه ما لا طاقة له. يريد هو أيضا أن يعرف منها ماذا فعلت باليسانس. ماذا حققت حتى الآن؟ والى أى نتيجة – وصلت؟ هل حصلت على وظيفة؟ لماذا لم تتقدم مثله الى أى واحدة من هذه المسابقات؟ لم تفعل ذلك أبدا وإلا كان قد رآها وتكلم معها. لماذا لم تظهر فى هذه المناسبات؟ هل وجدت عملا؟ هل تزوجت واستغنت عن ذلك كله؟ وربما لم تتقدم لأنها تعرف نتائج هذه المسابقات مقدما. ووصلت مبكرا

الى ما وصلت إليه أنا الآن من خيبة أمل. إنها مسكنات نتعاطاها من وقت لآخر حتى تمر الشهور والسنين. ربما استراحت لهذا السبب. وربما استطاع أبوها بوسائله الخاصة أن يحصل لها على وظيفة. وهى وسائل لا أملك أنا منها شيئاً ولا أبى. لكن هناك أناس يملكون وسائل شتى. كثير من زملائى تسللوا الى الحكومة والشركات بغير إعلان أو مسابقة... واحتلوا مراكز هامة. لا شك إنهم يملكون وسائل سحرية وطرق عجيبة. أما أنا فلا أملك شيئاً منها.. ليس لمتلى من الفقراء والكادحين الا أن يجرى وراء هذه المسابقات المضللة. وعليه أن ينتظر ثم ينتظر الى أن يشاء الله فيصل الى الوظيفة أو تدركه المنية.

طال به التفكير والوقوف فجلس على السور. ومشهد الفتى والفتاه يخطف بصره بين لحظة وأخرى.. هنا كان أخر لقاء بينهما بعد أن خرجا من الإمتحان. وفى هذا المكان بالذات كان جلوسهما.. ساعات طويلة مضياها فى حديث عذب لم ينقطع.. لم يشعرا بالوقت وهو يمشى حتى أوشكت الشمس على المغيب. ساعات جميلة مرت فى حديث عن النجاح والعمل وآمال المستقبل السعيد. أين هو هذا الأمل الآن؟ كان وجهه يشرق علينا من كل جانب مع أشعة الشمس المتسللة من بين الأوراق.. وكان يوحى بقرب الراحة والاستقرار والسعادة. يومها شعر كمال بأنه مشدود الى نوال بخيوط قوية فكان كلما حاول أن يودعها تذكر كلمة أو فكرة فعاد اليها. كذلك كان موقفها منه. لم تكن ترغب فى الافتراق عنه. لقد مد يده ليصافحها فبكت وطفرت الدموع من عينيها. دموع لا ينساها أبدا ما أجمل دموع الحب والاخلاص. وما أعظم جمال المرأة عندما تحب.. أما الرجل! لم يستطع أن يكمل الجملة. ولعله خجل من الدفاع عن نفسه فراح يقول " لعلها تقول الآن إنى خائن " فالرجال كلهم خونه فى نظر كثير من النساء.. وهالته هذه الفكرة فانتفض من مكانه كمن لدغته عقرب. ولو أن أحدا رآه فى هذه اللحظة لضحك منه أو ظنه مجنوناً. ربما راودتها هذه الفكرة اللعينة عن الرجال، وما الذى يمنع؟ فأنا لم أكتب لها منذ افترقنا. حتى فرصة

ظهور النتيجة لم انتهزها وأرسل برقية تهنئة كما يفعل الأقارب والأصدقاء عادة.. فكيف تعرف أنني لازلت عند وعدى بل كيف تعرف ومن أين إننى لازلت حيا يرزق أو على الأصح حيا لا يرزق مطلقا. وكل ما أفعله الآن أننى أجرى من ديوان الى ديوان ومن مصلحة الى أخرى سعيا وراء العمل. لماذا لا أبعث لها برسالة أحكى فيها عن كل هذا؟ كلمات رقيقة تشبع فضولها الى المعرفة وتطمئننها بطريق غير مباشر على موقفى منها وقد تننى على شجاعتى وصبرى. وقد تجد مبررا للانتظار. لكن هيهات أن يجد الشجاعة لفعل هذا؟

لكن لا. هذه مسكنات لاتشبع ولا تغنى من جوع. مافائدة الكلمات التى لاتجد طريقها الى التحقق. انها كاوراق الخريف الجافة لاتعطى ظلا ولا أملا. وربما تثير حولها الأقاويل وقد تثير غضب أبيها وتقلب حياتها هما وغما.. وقد يحدث ما هو أسوأ فيثير الخطاب فيهم الشفقة والرثاء لحالى والتندر على الحبيب المجهول الذى بعث لهم بأوراق إفلاسه مقدما ولاشك أن ذلك سوف يصيبها بخيبة أمل بل بصدمة عنيفة قد تقضى على كل ما تحمله لى من إحترام وهذه هى الكارثة الحقيقية.

كيف أفعل هذا فى الوقت الذى كان يجب على فيه زيارتهم للتعرف على والديها والتقدم لها وطلب يدها كما وعدتها. والخطاب الذى يسبق حضورى عندهم لابد أن يعطى صورة مشرفة ومشرفة أيضا. لابد أن يكون صورة للشباب المحب الواثق من نفسه ومن مستقبله. لكن هذه الفرصة لم تتوفر بعد ولا أعرف متى تأتى. كل منا فى حالة انتظار. هى تنتظر حضورى وانا انتظر الوظيفة والمال ولاشئ يحدث سوى الحيرة.

لقد تحمل أبوه ما لا يحمّل فى سبيل تعليمه. وهو يضع عليه أكبر الآمال. فقد كان كمال أكبر أخوته وكان فخورا بنجاحه سنة وراء سنة. كان يظن أن حصول ابنه على شهادة جامعية سوف يضمن له وظيفة محترمة براتب

كبير يضمن له مركزا اجتماعيا مرموقا. يرفع قدره وقدر الأسرة كلها فى عيون أهل البلد. ويجعله موضع حسد الأعيان والأغنياء. لذلك دخل كمال الجامعة وترك أباه المزارع الصغير ينفق عليه وعلى ثلاثة أخوة يصغرونه فى مراحل التعليم المختلفة. وقد اضطرته هذه النفقات فى آخر الأمر الى الإستدانة – وكان أمله أن يتخرج ابنه الأكبر ويحصل على الوظيفة المأمولة ويساعده فى تعليم أخوته الصغار والأبن ها هو كمال قد تخرج ولكن الى الشارع يبحث عن عمل أى عمل يلائم تعليمه ويضمن له لقمة العيش.

ومن فرط حرصه على أن يكون أول المتقدمين لكل وظيفة أصبح يحمل أوراق – التمتعة فى جيبه كأنها حبات الأسبرين. لكن أين هى الوظيفة. إذا كانت كل وظيفة يتقدم لها ألف طالب وبعد التقديم يظهر اسمه لحظة ثم يضيع فى زحام الناس لإعتبارات كثيرة. بعضها متعلق بفرص العمل ذاتها. وبعضها تخص المتقدمين. كل هذا التعب والجرى وشقاء السنين.. من أجل وظيفة وخمسة عشر جنيها فى الشهر. ليته إختصر الطريق واشتغل بشهادة الثانوية. وما كان أجده ان يفعل ذلك. ليوفر على نفسه كثير من المتاعب. متاعب السهر والذاكرة أربع سنين. أنفق فيها من المال الشئ الكثير. ولو توفرت هذه النفقات لأتاحت لأخوته الصغار ان يتعلموا فى غير ضنك فربما يكونون افضل حظا منه. كان فى إمكانه ان يختصر الطريق ويوفر الكثير من المعاناة له وللآخرين. بعد اربع سنوات من العمل والجد والخوف والقلق والحرص على النجاح. شهورا واياما قضاها بين الأمل واليأس.. تجارب تهز المشاعر والوجدان.. كان خوفه يزداد عقب كل امتحان. فالسقوط بالنسبة له شئ فظيع مخيف. إنه يعنى ان يصبح العام عامين.. ان تتضاعف نفقاته وأن تزداد ديون أبيه. وأن تتعذب أمه واخوته

لقد عانى قسوة التفكير فى مستقبله ومستقبل أخوته. وفكر فى أشياء كثيرة، مشاكل مؤقته ومشاكل مزمنة. حتى الحب كان يفكر فيه. فسنين الدراسة الجامعية. كانت سنين غربة. نقلته من ريف الصعيد الى قلب العاصمة. ومن بين الأهل الى زحام المدينة. وفى هذا الجو أحس بالغربة

وبالحاجة الشديدة الى الحب. وقد وجده عند زميلته نوال. أول مرة جلس بجوارها شعر بالارتياح لها. كلمات قليلة أثارت إهتمامه. ويبدو أنها كانت مثله فى حاجة الى هذا الإقتراب. اقترب كل منهما الى الآخر. بسرعة تعاونوا كما يتعاون الزملاء، وبدأ التفاهم بينهما يزداد ويقوى حتى وصل الى الذروة وقد أفاده هذا الحب وأفادها أيضا.. وخفف عنهما ألم الغربة وعذاب الكفاح.

عند هذا الحد من التفكير رفع رأسه. وهو يتكلم بصوت مسموع " لا يانوال. ابدأ. أنا لست نادما على حبك.. أه لو تعرفين حقيقة مشاعرى وما أكنه لك من حب وإخلاص. لما جرى فى خيالك أى شك من جهتى ولتأكد لك إننى عند كلمتى.. وإننى اتلهف على يوم ألقاك فيه مرة أخرى وسوف أفعل المستحيل فى سبيل ذلك. لكن مهلا أى مستحيل لم أفعله حتى الآن " ان الأرض كادت تشكو من مشيه فوقها.. وجريه وراء الوظيفة هنا وهناك. إنه يعلم ذلك ويشعر به. وأطرق أطراقة قصيرة توقف فيها فكره وخياله. وبعدها عاد يقول لنفسه من جديد. ان خمسين جنيها تحل مشكلتى الآن على الأقل مع نوال ... اذهب لأبيها واقدم لها شبكة.. أى شبكة تثبت حسن نيتى وتحفظ كرامتى وكرامتها. أه خمسين جنيها تنفع.. لمعت الفكرة فى خياله المتأجج ثم إبتسم فى سخرية مريرة. اين هى الخمسين جنيها. من أين؟ ليس هذا ممكنا الآن.

كان ذلك ممكنا وميسورا فى بداية حياته الجامعية.. كان يأتى من البلد كل عام وفى جيبه مثل هذا المبلغ، يشتري ملابس وكتب ويدفع مصاريف الدراسة. أما الآن فقد تخرج وما كان أغناه عن التمنى لو عرف هذه النتيجة حينذاك وعمل على تجنبها. وبحث عن وظيفة بشهادته المتوسطة. وتحمل مسؤولية نفسه وترك اباه يكافح من أجل أخوته ربما لو عرف ذلك فى حينه لاتجه فكر أبيه الى شىء آخر بعيدا عن التعليم. شىء أقل ارهاقا وأكثر ضمانا من حيث الإنتاج. شىء آخر يجمع به الفلوس. اليست غايته من

الشهادة الجامعية فلوس أكثر. ان الفلوس تحقق لأصحابها امتيازات لا –
تحققها أعلى الشهادات الجامعية. انها تضيف لهم الألقاب والنياشين
وتضعهم فى مراكز السيطرة والتحكم فى مقادير الناس. بل أكثر من ذلك
تضيف لهم المهابة والأناقة التى تعوضهم عما فاتهم من تعليم. الأغنياء
وخدمهم فى هذا البلد هم الذين يتمتعون بثمارها. فى أحضان الحياة يعيشون
ويتمرغون فى اللهو واللعب والمغامرات. يتذوقون حلاوة الحياة وعنفوان
التجربة. فى إمكانهم أن يتذوقوا اللذة حتى قمتها والكأس حتى ثمالتها كما
يقولون. أما أنا صاحب الليسانس، فقد عشت أهم سنين حياتى سجين الكتب
والمذاكرة. أما الحياة.. فأنا متفرج عليها.. والآن مفلس وعاطل وكما قال
بيرم التونسى..: "ياريت ابويا كان ربي بهيم." وكاد ان يصرخ. أى والله!
لو فعل ذلك لكان لديه الآن رصيد كبير. لو استثمر مصاريف سنة واحدة
من سنين الدراسة.. فى مشروع كهذا لأثمر كثيرا وتحول عن طريق الربح
المركب الى رصيد كبير ألف وألفين من الجنيهات. يملكها ويصبح من
الأغنياء يلعب ويلهو ويخلق فرص العمل له ولأخوته. لامجرد عاطل يتمنى
خمسین جنيها.

عند هذا الحد من التفكير بدأ يتأوه ويشد أنفاسا عميقة من الهواء ثم يزفر
زفرات حارة وهو يضع يديه على رأسه ويضغط عليها إنه يخاف عليها
أن تطير. أوه.. استغفر الله العظيم. مالى أنا وكل هذه الأفكار السوداء؟
ليس لى ذنب طبعاً. فقد كان أبى ينفق علىى وكنت أنا اسهر واجتهد. وقد
نجحت لم أتخلف ابدا.. وحصلت اخيرا على الشهادة. صحيح اننى تخرجت
من الجامعة الى الشارع.. لكن هذا ليس مسئوليتى! إنه أمر خارج عن
إرادتى. ربما يكون من عمل الحظ السئ. والظروف القاسية أو المجتمع
المتخلف وإمكانياته المحدودة أو الدولة والحكومة. وربما. وربما والمهم
الآن هو مصيرى، مصيرى أنا! هذه هى المسألة كما يقول هاملت.. إذن
لابد من عمل. وسار فى الطريق يضرب الأرض برجليه كأنما يريد أن
يخرقها غيظا وانتقاما حتى بلغ نهاية الشارع وعند عبور الميدان الى

كوبرى الجامعة، توقف قليلا ريثما يمر زحام العربات.. وعلى حين غفلة رفع عينيه الى تمثال نهضة مصر. وتطلع إليه فى دهشة كبيرة كأنه يراه لأول مرة، ثم ابتسم بسخرية. تبا لك أبا الهول! حتى أنت تحتاج الى امرأة تشد عزيمةك وتدعوك للنهوض! ما أقوى المرأة وما أقدرها على التأثير فى الرجال. لقد ابتسمت حواء لأدم فعرف المغامرة والعصيان.. وترك الجنة الى أرض الشقاء وهو يبتسم. وما زال حتى اليوم يسعى ويتقرب اليها لينفض عن نفسه سأم الحياة ومللها.

فى هذه اللحظات أخذ يتلفت حوله خشية أن يكون قد تنبه إليه أحد أو سمعه. ثم أخذ يسعل بصوت مرتفع كما يفعل الحارس اليلى حين يرفع صوته لينبه الآخرين ويبعد عن نفسه اللصوص. والحقيقة. كانت أفكار كمال هى اللصوص التى لم يستطع أن يطردها أو يتخلص منها. إنها لصوص لا ترى. لكنها تنفذ الى قلبه وعقله وتكاد تفتك بهما. فلم يكذب يعبر الطريق فى هدوء. ويضع قدميه على كوبرى الجامعة، حتى هجمت عليه من جديد واسترسل معها فى شبه غيبوبة. وفجأة استدار ناحية التمثال. نعم المرأة هى أيضا قوة عظيمة فى هذا الوجود.. المال والمرأة. قوتان هائلتان – تحركان العالم الى التقدم أو الى الحروب. هذه المتاعب التى تعصف بي الآن ليست جديدة على. ولكننى أهتز بعنف.. لأننى لا أجد السند.. لا المال ولا الحب.. ولا العمل. المال يؤدى الى المرأة.. ومع الحب تهون متاعب الحياة. وقد ذقت المتاعب من البداية وخبرتها. والفت الفقر والحرمان سنين طويلة. ومع ذلك لم أفقد الثقة أو الأمل فى الحياة لحظة واحدة.. عانيت الخوف من الفشل والحرص على النجاح وذقت الجوع ليالى.. مع السهر والمذاكرة.. فى انتظار وصول رسائل ابى والنقود. كنت أقتر على نفسى فى نفقات الأكل واللبس والكتب واستغنى عن أشياء كثيرة وكنت اتحمل بصدر رحب ورضى. لم أنهزم أبدا الى هذا الحد. ولم أضعف هكذا أبدا ذلك لأن نوال كانت بجوارى. كانت كلماتها تعزىنى وتملأنى بالقوة والسعادة. سعادة تعوضنى عن كل ما ألقاه لم تكن تعرف كل ما أعانيه ولكنها كانت

تدرك ما يكفي منه وكانت تحس بمشاعري وتقدرها. كانت تعتبرني مكافحا كبيرا وتشاركني بعقلها وعواطفها. كانت تصب في أذني كلمات التشجيع فتلهب حماسي. وتدفعني الى العمل بقوة ونشاط.. كانت تردد الحكمة العظيمة: لكي نكون عظماء لابد من ألم عظيم. وكنت أطرب لسماع هذه الكلمات. كان إذ ذاك كل شيء جميلا – وعظيما ويوصل للعظمة. الجوع والفقر والسهر والحرمات. أشياء عظيمة فما أحلاها. كانت نوال إذن هي مصدر الإحساس وتلك السعادة. أما اليوم فلا شيء من هذا كله. تبخرت كل أحلام السعادة والعظمة. لاشيء يدعو الى الرضى. لاشيء يدعو الى الأمل. كدت أفقد الثقة في كل شيء بعد أن يئست مني. وظننت انها كانت مخدوعة في المكافح الكبير الذي تصورته يوما ما.. واخذت تجتر الذكريات. وتقول اننى نسيتها. وأنى طبعا خائن بوعدى. لكن كيف أفى بهذا الوعد؟ . ومن أين أحصل على المال كي أزورها وأقدم هدية أو أقدم شبكة؟!

محب عاطل لا أجد عملا.. وربما هي تعلم هذا.. بطريق أو آخر. لكن هذا لا يكفي. يجب أن تعرف منى أنا. وهذا يتطلب خمسين جنيها. فأين هي الخمسين جنيها لو وجدت عملا منذ أيام التخرج لكان في استطاعتي أن أتم هذه الخطوة. كنت وفرت خمسة جنيها في كل شهر.. كنت اشتركت في جمعية وقبضتها الأول. أو كان يصبح في يدي عمل. وفي قلبي أمل وفي عندي حماس. قوى أما الآن!!

قطع شوطا طويلا على الكوبرى حتى أدركه التعب. وهو لا يكاد يحس بوجود العربات التي تضج من حوله. ولعل ضجيج الأفكار والهواجس التي كانت تدور في عقله قد غطت على كل صوت آخر فلم يسمع شيئا. حتى أذا ما وصل الى منتصف الكوبرى وقف هناك. وقد استرعى نظره منظر مركب شراعى كبير قادم من ناحية الشمال. كان الجو ساكنا. والشراع مفرودة. على آخرها. والمركب تتجه في طريقها ببطء شديد. تغالب تيار

الماء الذى يسير فى عكس اتجاهها ... فيمنع تقدمها فتبدو للعين كأنها واقفة على صفحة الماء لا تتحرك.

استغرقه هذا المنظر وقتا ليس بقصير. فأخذ يتأمله ويتأمل ما يحيط به من مظاهر الكون. الماء الهادى والسماء الصافية إلا من سحبات صغيرة بيضاء تتحرك فى تناقل كأنها قد تعبت من طول المسير. شغلته هذه الأشياء عن نفسه. فأحس بالارتخاء. وبدأ عقله يسكن وتهدأ فيه الخواطر.. وتعود الى وجهه اشراقته شيئا فشيئا وهو يمسح قطرات العرق المتصعب على جبينه. لقد أدرك انه تعدى حدود التفكير المشروع. لقد نشأ نشأة دينية. ومنذ صباه وهو يحافظ على تعاليم دينه. ويداوم على الذهاب الى الكنيسة وحضور الإجتماعات كما يداوم على الصوم. ويؤمن با الله إيمانا قويا. ويرى أنه يفعل كل شىء طبقا لحكمة سابقة لا يدركها البشر فلم كل هذا الشرود؟ ان المستقبل بيد الله. لكنه حتى فى هذه اللحظات التى صحا فيها وعيه. وبدأت تتسامى فيها أفكاره. لم يستطع أن يقاوم الهواجس حين هجمت عليه من جديد. فتحرك من مكانه وهو يهمس لنفسه، لم أحصل على عمل، وليس أمامى مصدرا آخر للرزق. إن أبى قد أرهقته النفقات وليس فى أستطاعته أن يتحمل المزيد. ولا يستطيع أن يفتح معه هذا الموضوع. أو أن يطلب منه هذا المبلغ الآن. ربما يعتبره الناس – مهووسا أو مجنونا! وربما جرحوا شعوره بالكلمات. قد يقول البعض، كل عيش الأول، وبعدين فكر فى الزواج. وهذا حق ويكفيه هو أنه تعلم وتخرج فى الجامعة. والى الشارع. إنه نجاح على أى حال.

بدأ وجهه يشرق ويضىء وهو يردد. إنه نجاح على أى حال.. فبدأ يصحو فى نفسه الأمل الذى تغذيه العاطفة الدينية حيثما تثار. تلك العاطفة التى ترسخت فى أعماقه بفعل التربية. وكأنه يريد ان يعتذر عن تلك الأفكار اليائسة فيهمس لنفسه. كل شىء مستطاع عند الله. لماذا تفكر هكذا – فى الغد، ان الغد يهتم بشأته. لماذا تستكثر على الله ان يبعث بخمسين أو بمائة أو بألف من الجنيات وينتشلنى من هذا الوضع! ففى مقدرته ان يملأ جيوبى

الخواوية بأوراق من الخمسين والمائة. فهو لا يبخل على المؤمنين. لقد كفل بنى إسرائيل اربعين عاما فى البرية. وغرق فى هذه الأفكار الجديدة حتى أذنيه كأن عواطفه لا تعرف الاعتدال أبدا. فهو لا يكاد يترك النقيض حتى يتحول الى نقيضه. فشرد مع هذه الأفكار حتى كاد يصدق أن السماء تمطر ذهبا لم لا؟ لقد أمطرت المن والسلوى على بنى إسرائيل فى البرية.. وأشرق هذا خاطر فى نفسه وخياله وهو يتطلع الى البحر ووجهه يزداد إشراقا كأنما قد وصل فعلا الى الحل. نعم. السماء قادرة على أن تمطر ذهبا. بل أوراقا كثيرة من فئة الخمسين والمئة ولا أستبعد أن افتح حافظتى فأجدها مليئة الآن! وكاد يصدق أن بجيبه خمسين جنيها.. بل لعله صدق هذا بالفعل فراح يفكر فى نوع الهدية التى يمكن أن يقدمها الى حبيبته وهل يأخذ شبكة أم هدية؟ وأخذ يناقش هذه الأفكار بينه وبين نفسه وهو فى غاية النشوة. حتى إذا ما وصل الى نهاية الكوبرى سمع بائع الصحف وهو يصيح...المساء ... آخر موعد لإستبدال أوراق العملة الكبيرة. وبعدها يتم إلغاء. التعامل بهذه الأوراق: المائة جنية والخمسين جنية ... ودون أن يدر مد كمال يده فى عصبية الى النسخة التى فى يد البائع وتعلق بصره بالعنوان الكبير...ثلاثة ايام على استبدال الخمسين جنيها وتأمله لدقائق. ثم مد يده الى جيبه ليخرج ثمن الجريدة ... وعندئذ اتبسم إبتسامة مريرة. لقد أدرك انه كان فى حلم لذيد ...

8- فى بيتنا أرنب!

اشتهدت زوجتى لحم الأرانرب، فذهبت للسوق واشترت أرنبا. ولما رآه الأولاد الصغار فرحوا به فرحا عظيما، وراحوا يدورون حوله ويتقرسون فيه ويداعبونه. ويتحدثون عن جمال شاربه وبريق عينيه، ويتنافسون على حملة، وكل واحد منهم يريد أن يحمله ويحتضنه ويداعبه، كأنما لم يروا أرنبا من قبل.

المهم ان زوجتى تريد أن تذبح الأرنب. وهنا صاح الأولاد: لا. لا. حرام يا ماما ده أرنب جميل. وفجأة قال أحدهم. ده مش أرنب دى أرنبه ورد الثانى فعلا أرنبه. شوفوا بطنها! فرد الثالث دى حامل.

وهنا ضحكت الأم وهى تدعو الأولاد للكف عن الكلام وبعد قليل أخذ الشك يساورها، فقررت أن تستشير زميلتها بالمدرسة " أبله لبيبة " التى تزعم انها خبيرة فى شئون الأرانرب وتربيتها وفعلا حضرت " أبله لبيبة " الى منزلا وفحصت الأرنب فحصا شاملا ودقيقا واعلنت رأيها: انها أنثى.. ولكنها ليست حامل، ولا ضرر من ذبحها. اقتنعت زوجتى بهذا الرأى وطلبت الى أن أعاونها فى عملية الذبح.. فاتجهت اليها فرأيتها تمسك فى يدها اليمنى بسكين حادة كبيرة. وفى يدها اليسرى تمسك بالأرنب. ولم أكد

اقترب منها وانظر الى الأرنب المسكين حتى ارتعدت. إننى لا أقوى على رؤية الدم. واستغربت كيف أن زوجتى الجميلة الوديدة تقوم بهذا العمل بكل هدوء واطمئنان. فنظرت إليها وإلى الأرنب وهو ينتفض فى يدها وضحكت قائلاً: انتظرى أيتها السفاحة الرشيقة!

وهنا انفجرت فى الضحك، وبدأت يدها تهتز فأسلمت الأرنب المسكين لى وهنا أمعنت النظر فيه وهو يرتعش وقلت! انظرى الى بطن الأرنب. انها كبيرة جدا ولا بد أن يكون فى بطنها أولاد. ثم سألت بحدة: لماذا لا نتركها بضعة اسابيع حتى نقطع الشك باليقين وردت فى استسلام: ليكن مادام هذا رأيك. وصاح الأولاد فرحين، وراحوا يبحثون عما يجب عمله نحو هذا الحيوان المسكين فرتبوا له مكانا فى بلكونة المطبخ، وأخذوا يدبرون له ما ياكله من الخس والبرسيم كل صباح.. وحددوا لكل واحد منهم يوما ينهض فيه مبكرا ليحضر له البرسيم والخس قبل ذهابه الى المدرسة. كان كل واحد منهم يطمئن قبل خروجه من البيت على ان الأرنب قد أكل إفطاره.

وهكذا نمت علاقة الحب والإهتمام نحو هذا الحيوان الجميل. لقد تحول الأرنب فجأة الى مصدر سعادة غامرة للأولاد الصغار حتى أختهم الصغرى إيرينى. كانت تشاركهم هذا الإهتمام وتقف أمام الأرنب لحظات طوال تنتظر اليه وتتأمله ثم تداعبه وترسل اليه القبلات وتطمئن عليه عند خروجها للمدرسة وبعد عودتها وقبل أن تنام.

هكذا صار هذا الحيوان فردا ضمن افراد الأسرة. بل إنه أصبح موضع الاهتمام والتأثير عند الأولاد ... يشدهم نحوه. ويستثير في قلوبهم الغضة أجمل مشاعر الحب والحنان وهى مشاعر تزداد قوة يوما بعد يوم.

لم تمر سوى أسابيع قليلة حتى فوجيء الجميع بالأرنبة وحولها سبع أرناب صغيرة جدا. لقد انجبت هذا العدد الكبير فى مرة واحدة.. وفرح الأولاد برؤية هذه الكائنات الصغيرة فرحا لا حدود له. وأخذوا يتحدثون همسا. وكأنهم يخشون إزعاجهم، لأن أهمهم اخبرتهم ان الأرناب الصغيرة تموت سريعا اذا ازعجها أحد.. أو امسك بها فاكتفوا بالنظر اليها من بعيد. وازداد اهتمامهم بتغذية الأم، حتى تغذى الصغار كما ازداد حرصهم على المحافظة عليهم بتوفير الهدوء التام فى المنزل. وفى هذا الجو الهادىء نما الصغار سريعا وكبرت أحجامهم. وهنا ظهرت المشكلة الحقيقية. مشكلة ضيق المكان والإزدحام. ان بيتنا لايزيد عن ثلاث حجرات وصالة كبيرة. وليس بها متسع لتربية الحيوانات، وحتى بلكونة المطبخ لا نستطيع أن نتركها طويلا لهذه الحيوانات الجميلة. لأنها تحتاج الى نظافة مستمرة وهذا يشكل عبئا ثقيلًا على زوجتى. فكيف نحل هذه المشكلة؟

قالت زوجتى: نذبح الأم أولا.. وصاح الأولاد فى صوت واحد: لن نأكل لحمها. وضممت صوتى الى اصواتهم وقلت ولا أنا، وهنا تساءلت زوجتى: ماذا نفعل اذن؟

نهديها لمن يرغب فى تربية الأرانب ونتاجها، وفعلا تم الاتفاق علي ان تأخذها جارتنا الطيبة (أم حمدى) ليضموها الى مزرعة الدواجن عندهم، وبقي الصغار يواصلون نموهم المستمر.. ولازالت علاقة الأولاد بهم فى نمو مستمر. وهم يمانعون فى ذبحهم بقوة. وكان لموقفهم هذا اثر كبير. فقد ضعفت ارادة زوجتى امام رغبتهم. بل انها اصبحت غير جادة فى الاقدام على ذبح أى منهم. وكنت أراها بين وقت وآخر. تقدم لهم الغذاء وتداعبهم فى سعادة كبيرة وهى منشرفة الصدر مثلها مثل الأولاد تماما. لكن المشكلة اخذت تتفاقم دون ان ندرى.. فلم ننتبه الى ان هذه الأرانب فيها الذكور وفيها الإناث. وبعد اسابيع قليلة فوجئنا بهذه الحقيقة حين اكتشفنا أن منهم ثلاث أرانب حوامل. ووجدنا أنفسنا فى ورطة!! فضحكنا من هذه المفارقة الغريبة التى كشفت عن غفلتنا.. إنها ورطة شديدة بلاشك. فكيف نواجه هذه الحالة من زيادة النسل فى ظل أزمة الاسكان الخانقة التى نعيشها؟ فلو اننا انتظرنا عدة أسابيع أخرى لتضاعف عددهم عدة مرات، وتحولت المشكلة الى كارثة. ومن ثم كان لابد من التحرك السريع لمواجهة الامر.

وفى غيبة الأولاد اتفقنا انا وزوجتى على ان نرسل الأرانب الحوامل الى مزرعة جارتنا الطيبة، ولن نخسر شيئا فالست " أم حمدى " كريمة جدا. وهى ترد لنا الهدية بأحسن منها، أما الأرانب الأخرى فيتم ذبحها ايضا بعيدا عن عيون الأولاد حتى اذا عادوا من مدارسهم وجدوا كل شىء قد تم وانتهى.

واخذت زوجتى بهذه النصيحة. ولم يشهد احد منا عملية الذبح الأولى التى راح ضحيتها زوج من هذه الحيوانات الأليفة. وكانت النتيجة وجبة من اللحم الشهى. لكن فى المرة الثانية عدت مبكرا فوجدت زوجتى الجميلة تضم اطراف الأرانب الأربعة واحدا بعد الآخر وتضعها تحت قدمها ثم تشد رأسه الى أعلى وتنزل على رقبته بسكين حادة، ثم تسلخه فى لحظات فوقفت مشدوها امام هذا المشهد العجيب. ان زوجتى تتناول الامر بحنكة جزار خبير متمرس ثابت الأعصاب. وانا زوجها لم أجرؤ فى حياتى على ذبح فرخة ... رغم اننى من أبناء الريف. صرت اتأمل الأمر من عدة وجوه. ان زوجتى جميلة رقيقة جدا ومطبعة أيضا.. فكيف تجرؤ على ذلك بقلب صلب؟! وظللت أياما طويلة اتذكر هذا المشهد بل ان منظر الأرنب وهو يرتعش فى يدها ظل يطوف بمنامى من وقت الى آخر حتى كان هذا الصباح. حين فتحت عيني على الجريدة اليومية لأقرأ هذا العنوان " زوجة بالهرم تذبح زوجها بالساطور وتسلخ جلده. " و " زوجة أخرى تقتل زوجها وتشفى لحمه من العظم. "

وصدمتنى هذه الأخبار صدمة شديدة. لكننى مالبت ان تنفست الصعداء. وحمدت الله على رحمته. ان زوجتى لازالت جميلة ورقيقة ووديعة ولم تذبح سوى الأرانب.

9- حلم صيني

هذه قصة شعبية من الأدب الصيني، لا يعرف لها مؤلف. وقد نقلها الى الإنجليزية المستشرق آرثر ويلي (1889-1966) وقد عاش في الصين واليابان سنوات طويلة، وترجم العديد من الأعمال الفكرية والأدبية الصينية. ولعل أهمها أعمال كونفوشيوس.

وقصة " حلم صيني " تحفل بالسرر والمتعة. فهي تدور حول موظف بيروقراطي لديه إحساس زائد بالأهمية، وقد رأى حلما مزعجا. وحاول أصدقائه ان يسخروا منه، فتظاهروا بأن ما رآه في الحلم قد حدث فعلا. هذا هو مضمون القصة لكن المتعة الحقيقة نجدها في قراءة التفاصيل.

حدث ذلك في عام 759 للميلاد، حين ألم مرض الحمى بالموظف شيوى، وأخذ يئن من الحمى أياما عديدة. كان يقضى الليالى والأيام مؤرقا، يتقلب فى فراشه محموما دون أن ينعم بأى قدر من الراحة أو النوم ... وظل على هذه الحال وقتا طويلا حتى أدركه الإعياء ذات ليلة فراح فى نوم عميق، وبينما هو غارق فى نومه، طاف به حلم مزعج إذ رأى فيما يرى النائم أنه يخاطب نفسه قائلا " لماذا أرقد هنا فى هذا الفراش المحموم؟"

ونسى المسكين أنه يعاني من نوبة الحمى فأردف يقول: " من الأفضل لى أن أخرج من هذا المكان لأتمشى فى الهواء الطلق " ثم التقط عكازه الذى أعتاد أن يتوكأ عليه، وأخذ يسير على شاطئ النهر.

استمر فى سيره حتى وصل الى بحيرة عميقة صافية حيث وقف هناك يراقب حركة الماء والأسماك، وتمنى لو ينعش نفسه بحمام فى الماء البارد. لقد كان مغرماً بالسباحة فى صباه ... لكنه لم يمارس هذه الرياضة الجميلة منذ سنوات طويلة، وحين رأى الأسماك تجرى حرة طليقة فى الماء أحس بالندم وقال لنفسه: " ويحنا نحن البشر! إذ لا نستطيع العوم كالأسماك. ليتنى كنت سمكة ... ليتنى أحصل على وظيفة سمكة ... ولو لفترة مؤقتة. حتى أتقن فن العوم " وفى الحال ناداه صوت من تحته قائلاً:

" ولماذا لا تتقدم بطلب لهذه الوظيفة. ان الحصول عليها ليس بالأمر العسير، حتى لو طلبت وظيفة دائمة ... ان وظيفة مؤقتة من السهل تدبيرها. وسوف أفعل هذا من أجلك " وفى الحال ظهر أمامه عملاق كبير عليه رأس سمكة وأخذ يقرأ عليه البيان الأتى:

" جرت العادة عموماً أن تعيش الأسماك تحت الماء، ويعيش الناس فوق اليابسة، وحيث أن الموظف شيوى قد تقدم بطلب وظيفة للعمل معنا كسمكة، فقد قررنا نحن "إله النهر" الموافقة على طلبه وتعيينه باسم " الشبارة الحمراء المؤقتة " ورأينا فى الوقت ذاته أن نحذره تحذيراً لابد منه لكل قادم جديد: اياك والطعم المعلق بسنارة! ... احذر أن تمسك به".

أنصت شيوى الى هذه الكلمات باهتمام كبير، ثم نظر الى نفسه، فرأى أنه قد تحول فعلاً الى سمكة. قام شيوى برحلات عديدة فى عرض الماء، وكان سعيداً جداً بوظيفته الجديدة الا أن سعادته لم تدم طويلاً، وسرعان ما تبدل الحال وأخذ يعاني من نوبات الجوع والهزال حتى جاء عليه يوم لم

يجد فيه شيئاً يأكله. وفجأة رأى قارب صيد يقترب منه، فأخذ يسير خلفه أملاً في أن يلتقط بعض فتات الخبز المتساقط من يد الصياد دون جدوى. لكنه حين اقترب من القارب رأى أن الصياد هو شوكان الذى يعرفه جيداً. وحينئذ قال لنفسه:

" لقد حصلت على وظيفة مؤقتة فى عالم الأسماك ولم أتخذ نهائياً عن وظيفتى كإنسان. ان شوكان لايجرؤ على قتل موظف مثلى. " ثم أقبل على الطعام وابتلعه. عندئذ جذب شوكان الخيط ورفع شيوى الى حافة القارب ثم وضعه فى القاع وأخفاه بين كومة من الأعشاب المائية. ويعد قليل جاء الخادم وقال لشوكان " إن رئيس ديوان الموظفين يستعد لإقامة حفل كبير تكريماً لبعض أصدقائه ويريد سمكة كبيرة وأجاب شوكان: "ليس عندى سمك أبيعه" لكن الخادم نظر الى القارب فرأى السمكة المغطاة بالأعشاب فمد يده اليها وحاول شيوى عبثاً أن يحكى قصته لكننى لازلت موظفاً بشراً " والخادم لا يبدو عليه أنه يسمع شيئاً، ثم حمل السمكة وسار بها الى مقر الحكومة.

وبمجرد ان وصل الخادم ومعه السمكة، استدعى الطباخ وانج الذى أخذ السمكة الى المطبخ وفى يده سكين كبير وصاح شيوى يستعطفه.

" وانج أيها الرجل الطيب. كنت طباخى المفضل منذ جئت الى هنا ... ولم أعرف طباخاً سواك. وبالتأكيد أنت لا ترضى قتلى! " الا أن وانج لم يسمع شيئاً مما قيل، وأخذ شيوى وأسند رأسه على المنضدة وأوشك أن يهوى بالسكين على رقبتة. وحينئذ قفز شيوى مزعوراً وهب فجأة من نومه. فوجد أنه قد شفى من الحمى.

وحين جاء الأصدقاء لزيارته، أخذ يحكى لهم ما رآه فى الحلم ... لكن ما زاد من دهشته أنهم قالوا له:

" أن ما رأيته كان حقيقة كاملة ... ولقد رأينا شفتيك تتحركان دون أن تصدر صوتا، ولم يخطر ببالنا قط أن تلك السمكة هي أنت " ومنذ ذلك الحين، لم يعد شيوى ولا أصدقائه يأكلون سمك الشبار أبدا.

10- كنعان أفندي

كان ذلك يوم السبت الثاني من العام الدراسي، حين دخلنا في طابور الصباح. كنت في آخر الطابور وكان مكاني في آخر الفصل. ولم أكد اجلس حتى فتحت الدرج ودفنت وجهي فيه. وأخذت أرتب كتيبي. في هذه اللحظات، وقبل أن ارفع رأسي سمعت صوتا يصيح في لهجة عسكرية: قيام!، ورأيتني أقف فجأة وأتطلع الى مكان الصوت. وراعني أن أرى رجلا طويلا تعلق رأسه على حافة السبورة.. يلبس بدلة داكنة. فابتسمت. إذ رأيته يدقق النظر في وجوه الطلبة ويدور بعينه في زوايا الفصل ليرى النائمين على حد قوله.. أو الذين لم يقفوا له. ثم صاح فجأة " جلوس " قيام. جلوس!"

ولم اقف هذه المرة. فأخذ يشير إلى بإصبعه وهو يقول " أنت يا؟ " أما أنا فكنت أتطلع إليه مندهشا دون أن أنبس بكلمة. إذ كانت هذه هي المرة الأولى. التي أسمع فيها مثل هذه النداءات في داخل الفصل، فأشار إلى مرة أخرى وقال بلهجة شديدة " انت يا ... ياللى على الدفة هناك " أنا؟ " قلتها في برود مصطنع ثم وقفت. فقال " أيوه أنت إيه مش عاجبك!! " هو إيه اللي مش عاجبني؟ " قلتها وأنا أكتم ضحكه. فقال لم تقف مثل أخوانك؟" فصمت قليلا أفكر في شيء يلفظ جو الحديث الذي كاد يتخرج بيني وبينه. وفجأة قلت - أصل يا أفندي كنت تعبان شوية. لسة أول السنة.

ونسينا التمرينات كلها مرة واحدة. وهنا أنف جر الطلبة فى ضحكة مدوية. فنظر إلى وفى عينيه غيظ ظاهر. وقال " أترمى مكانك واسكت " فاستأنف الطلبة الضحكة مرة ثانية، فأخذ يدق الترييزة بقوة وهو يقول " أنتم لازم تفهموا أولا. أنا لست من المدرسين الذين يرضون بالفوضى. أنا احب النظام دائما. ولا أتهاون أبدا فى ذلك. فالنظام عندى أهم من العلم ومن العمل - وهنا قاطعة طالب وسألة فى لهجة تهكم.

- الأستاذ مدرس تربية بدنية؟ " ويبدو أن الأستاذ قد فطن إلى مغزى كلامه فأوقفه قائلا " أنت اسمك ايه؟"

- اسمى محمد سالم " فصاح الطلبة فى لهجة واحدة قائلين - الشهير ببكرة؟ " ثم انفجروا فى الضحك.. فنظر إليهم الأستاذ والشرر يكاد يتطاير من عينيه وهو يقول:

- أنت ياسى بكرة. تترمى وتسكت. واياك أن تتكلم بدون إذن " فعاد التلاميذ يضحكون واغتاظ المدرس أكثر فراح يدق الترابيزة بعنف ويقول " اسكت يا حيوان إنت وهو؟؟!!" وأخذ وجه الأستاذ يتغير ويصفر لونه. فمال بكرة إلى شماله وهمس فى أذن زميله بصوت مسموع " شوف وشه وحسش ازاي!!!" وكان أصبعه يشير إلى وجه المدرس. فالتفت إليه وصرخ فى وجهه. " أخرج برة يا كلب." ثم سار بكرة نحو الباب فى بطاء شديد وهو ينظر إلى المدرس وعلى وجهه إبتسامة، والمدرس يشير إليه " بسرعة! أخرج. أنت جرثومة فى هذا الفصل" والطلبة ينظرون إلى هذا المنظر ويضحكون فى هدوء حتى إذا ما خرج بكرة وأغلق الباب خلفه عاد المدرس إلى هدوئه ثم واصل كلامه " أنا أعرف كيف أؤدبه." ثم بدأ الصمت يسود الفصل ومرت على ذلك لحظات طويلة هدأت فيها نفس الأستاذ تماما حتى زالت علامات الثورة من على وجهه. ولما أطمأنت نفسى إلى ذلك سألته بلهجة هادئة تتم عن الأدب - البيه طبعا مدرس تاريخ؟ " وهنا أخذ يجيبنى "" أنا متخصص فى الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع ولكن زيادة على ذلك هدرسكم مجتمع مصرى " ونطق كلمة " فلسفة وعلم نفس " فى لهجة شديدة سريعة كادت تثير موجة أخرى من الضحك، لولا أن

الطلبة أستطاعوا أن يكتموا أنفاسهم. وان بدا الإبتسام ظاهرا على وجوههم. ومع ذلك لم يتركوا هذا الكلام يمر دون تعليق فقال أحدهم " وإيه المجتمع المصرى ده؟" فقال المدرس " دى مادة جديدة ومن حسن حظكم قررت الوزارة تدريسكم هذه المادة، لأنها مفيدة جدا بالنسبة لكم. فهى تعلم الطالب الشعور بالمسئولية وتساعده على تكوين شخصية قوية ممتازة " وصمت قليلا ثم راح يواصل حديثه وهو يطرق التربيذة بيده " وأهم من كل هذا إنها تعلمكم النظام والأدب " وكان يطبق شفثيه ويضغط على كل حرف من كلمتى " النظام والأدب." وكأنه أراد بذلك أن يعلق على ما حدث من ضحك وتهريج. وعندئذ رن جرس الحصة الأولى فخرج المدرس مسرعا. والطلبة يشيعونه بنظرات الدهشة. دون أن يعرفوا سببا للقيام أو الجلوس.

وعند دراسة الجانب العملى فى المجتمع المصرى، بدأ المدرس يقسم طلبة الفصل الى مجموعات صغيرة. يطلب إلى كل منها الحصول على معلومات عن أى وجه من وجوه النشاط التى تختار هذه المجموعة دراسته فى البيئة المحلية. وجاء دور الطالب الذى يجلس إلى جانبى. فأشار إليه كنعان أفندى بأصبعه الطويل وقال وأنت يا سى ناروز. هتعمل إيه؟ " ووقف ناروز على الفور مبتسما. وكانت أى حركة من ناروز كافيته لإثارة موجة من الضحك بين الطلبة" فقد كان معروفا بطرافة النكتة وسرعة البديهة وطريقته الخاصة فى الكلام. لذلك اتجهوا إليه كلهم بعيونهم. وما كاد يقول ""أنا سأزور مصانع الحلوى وأجمع معلومات عن صناعة الحلاوة الطحينية والعسلية وهلموجرا" .. حتى ابتسم كنعان أفندى. وقال "أنت كلك حلاوة يا ناروز " وانفجر الطلبة ضاحكين وما كاد يعود الهدوء إلى الفصل حتى علق بعرة على الكلام قائلا "ده مصنوع فى كوم الراهب " فالتفت إليه كنعان أفندى مبتسما وهو يقول" واياه ده المصنوع فى كوم الراهب كمان؟ وأجاب بعرة " يا استاذ دى بلد ناروز أفندى.. وهناك بيصنعوا من الجلة بلوطة. " وعاد الطلبة يضحكون. ولكن ناروز لم يسكت فقال " أصل بعره بيشر ببوطة كل صباح وباين عليه مسطول " .. وعلت القرقرعات لحظات

أخرى ثم عاد الهدوء: ولكن الابتسام مازال واضحا على وجه كنعان أفندى. كأنما قد أعجبتة هذه الأفية إلى حد بعيد فقال " خلينا مع السيد بعرة أيوه ياسى بعره! هتعمل إيه أنت؟ وقبل أن يجيب بعرة صاح ناروز من الخلف وهو يقول " معلومات عن عدد الغرز والحشاشين لأن خبرته كبيرة فى الناحية دى".. " ووقف فايق زميل بعرة يؤيد ناروز ويقول " أيوه سى بعرة ينفع فى الشغلة دى وهنا قفز بعرة واقفا وراح يشير على زميله بالجلوس وهو يقول " طب أقعد حتى أنت يا عماوى يا فيس " وكانت قامة بعره قصيرة جدا بالنسبة لزميله فايق فبدأ منظره مضحكا جدا. وهو يشير من يده. إذ بدا برأسه الكبير المفرطح وكأنه معلق فى يد زميله. فنظر كنعان أفندى إليه وهو يهز رأسه ويقول "

" كبعرة فى إست كبش معلقة وهذا الكبش يمشى " وأعجب الطلبة هذا البيت من الشعر فراحوا يضحكون. إذ إطمأنت نفوسهم إلى أن الأستاذ لن يثور. فعلت فرقاتهم. وضحك الأستاذ حتى رن جرس الحصة فخرج وهو يضحك.

وبدأنا فى دراسة علم النفس. وكان أول فصل هو مشكلة الشخصية. وهنا راح الأستاذ كنعان يلتمس الأمثلة من عالم الواقع ليدعم بها شرحه لهذه النظريات. حتى بدأ تدريس الميول والهوايات والأهواء والأمزجة. وما يتبع ذلك من صلة العقل بالجسم. وعند هذه النقطة. وقف الأستاذ وأخذ يمتد عنقه الطويل ويقول " الآن تعرفون السبب الذى من أجله بأطلب اليكم فى أول كل حصة القيام والجلوس مرات عديدة.. ذلك لأنى حريص جدا على فائدتكم. وهذه ناحية نفسية هامة فالجسم الخامل يؤثر على العقل ويعطل تفكيره وعند تنشيط جسمك ببعض الحركات. يبدأ العقل نشاطه من جديد "

وهنا وفى هذه اللحظة فقط عرفنا سبب القيام والجلوس. وكان هذا كشفا عن جانب من شخصية كنعان أفندى التى لا تقل تعقيدا عن أضعف فرد من تلامذته - ولكن الأستاذ كنعان كان يحاول دائما فى كل درس أن يضرب

مثل هذه الأمثلة ويحاول كما يقول تطبيق العلم على الواقع " وبهذا كشف لنا الكثير من أسرار شخصيته وتصرفاته. فقد كان من عادته أن يمر على الطلبة في طابور الصباح أثناء تأدية النشيد الوطني وكان يحرص على تنبيه كل واحد منا بترديد النشيد. وفي أثناء ذلك كان يهدد بعض الطلبة ويتوعدهم. وكانت هذه الحركات مصدر سخرية وتهكم من الطلبة جميعا. وفي ذات يوم أخذ في شرح الإيحاء الذاتي والإيحاء الخارجى فقال " لكى تتأكدوا أنى أتبع فى تدريسيكم طرقا تربوية حديثة. تقوم على أساس من علم النفس. ولو بحثتم فى كثير من المدراس لما وجدتم مدرسا واحدا مثلى يفهم هذه الطرق! وصمت قليلا" فأنصت الطلبة إليه بأنظارهم وأسماعهم، وكأنهم يسمعونه لأول مرة. فواصل حديثه قائلا. ولذلك تروننى حريص على تنبيه كل منكم بأن يقول نشيد الصباح. لأنك بترديد كلمة مصر. مصر توحى إلى نفسك بحب الوطن حتى يرسخ ذلك فى نفسك. فتشبه وأنت وطنى مثالى يشعر بمسئوليته نحو وطنه واهله. " وبهذا المثل تذكر الطلبة فى هذه اللحظات حركات كنعان أفندى فى الصباح. ونظراته التى تهدد وتتوعد. وبدأوا ينظرون بعضهم لبعض. وكأنهم يستعدون لإطلاق ضحكة مدوية ولكن صمت الأستاذ لم يطل. فواصل الشرح حتى انتهت الحصة بسلام.

وكان من عادة الأستاذ كنعان أن يحضر إلى المدرسة عارى الرأس. حتى كان ذلك اليوم - حينما دخل الفصل وفوق رأسه قبعة سوداء، من ذلك النوع الذى يلبسه العمال وسائقو السيارات وراح يكتب ملخص الدرس على السبورة، بينما أخذ الطلبة يتطلعون الى هذه القبعة. وينظرون بعضهم إلى بعضهم وكأنهم يتساءلون عما قد أصاب الأستاذ فى عقله. ولما انتهى من الكتابة، أدار إليهم وجهه، واعتدل فى قامته. ثم رفع وجهه إلى أعلى وراح يسرح ببصره كأنما يتأمل شيئا فى سقف الحجرة. أو كأنما اصابته نوبة تأمل أو تجلى من تلك التى تصيب الفلاسفة والمتصوفين. ولست أدرى أكانت هذه عادة أصيلة فى كنعان أفندى أم أنه كان يتصنع الذهول والشرود حتى يحسبه الناس فيلسوفا!! - على أى حال هذه الحالة لاحظناها عليه

مرات عديدة بيد أنه فى هذا اليوم، عندما رجع إلى نفسه فجأة ورأى عيون الطلبة معلقة به، وعلى وجوههم تظهر الجدة والدهشة، ابتسم ابتسامة عريضة وجعل يتنحج ويقول " آه . آه أنا عارف " ثم ألقى بدفتر التحضير على المنضدة التى أمامه ثم بدأ يشرح الدرس.

بدأ كلامه بما يشبه السؤال فقال " كيف تنتقل العادات والتقاليد والعرف " ثم واصل. أما عن التقاليد فهى تنتقل رأسيا أى من الأب إلى الإبن وهكذا أما العرف فإنه ينتقل أفقيا أى من الجار إلى جيرانه. وأوضح مثل لهذا ما ترونه اليوم منى " ثم رفع يده إلى رأسه وخلع بها القبعة ثم أردف قائلا " أنا أعرف أنكم مندهشون لهذا الأمر، لكن هذه القبعة - فى الحقيقة مفيدة ولها شكل جميل. وتليق بالشخص المثقف أيضا. وقد انتشر هذا النوع بين الناس. ولما أعجبنى أشتريت هذه القبعة. - وأود أن اراكم غدا وأنتم تلبسون مثلها " وهنا ضحك التلاميذ ضحكة طويلة وضحك معهم المدرس أيضا.

وعندئذ وقفت وبدأت أتكلم بدون إذن " لكن فيه مثل آخر أوضح يا بيه. " وتوقف التلاميذ عن الضحك ثم اتجهوا إلى فقلت " سيادتكم بدأت تركب عجلة موتور " وهز رأسه ثم قال فى لهجة شديدة " عايز تقول إيه؟. ونظرت إليه وأنا أكتم ضحكة قوية بينما راح التلاميذ يضحكون من جديد وواصلت قائلا " عايز اقول إن العجلة الموتور مثل على انتقال العرف عن طريق أفقى. " فصمت قليلا ثم أشار على بالجلوس، وهنا قفز بعره من مكانه وقال.. " وإيه السبب فى إن سيادتكم بتمشى بسرعة بطيئة؟ وراح الأستاذ يجيبه فى جدية صارمة " نظام المرور. عشرة كيلو فى الساعة. ولازم احنا المثقفين نكون مثل يحتذى فى اطاعة القوانين. " فقاطعة طالب آخر قائلا " لكن قوانين المرور عشرين كيلو فى الساعة " وهنا دق على المنضده بيده وقال " بس كفى ده موضوع خارج عن الدرس. سكون!! " وبعد أن أكمل الشرح طلب إليهم جمع الكراريس لتصحيحها. وهنا بدأ صوت التلاميذ يرتفع فراح يدق على المنضدة من جديد ويقول " فى هدوء. فى هدوء " لكن الصوت زاد علوه فصرخ الأستاذ كنعان " النظام. الهدوء يا

حيوان أنت وهو " ثم حمل كومة الكراريس تحت أبطه وخرج من الفصل والطلبة ينظرون خلفه ويبتسمون.

وحدث مرة أن دخلت في فصل ثلاثة أدبي، وجلست إلى جانب صديقي في مؤخرة الفصل، وبعد قليل دلف الأستاذ كنعان مسرعا من الباب. وأخذ يكتب كعادته ملخص الدرس على السبورة. وبدأت على حركاته الجدية والاهتمام أكثر من أي وقت مضى، وأن كان دائما بادی الجدية والاهتمام، إلا أن هذه المرة كانت ملفته لنظر التلاميذ كلهم. فجعلوا يتطلعون إليه في دهشة ويتذكرون نواذر كنعان أفندي العديدة، ويبتسمون بعضهم لبعض في تساؤل عن سر إنهماكه الشديد في الكتابة. وما إن أنهى الكتابة حتى استدار نحوهم، وبدأ ينفض يديه من الطباشير، ويحملق في وجوههم دون أن يتكلم، ويبدو أن شيئا ما كان يشغل فكره! فلم يراني على غير عادته حين كان يدخل الفصل ويفرز الطلبة واحدا واحدا، بل أحيانا كان بعدهم في بدايه الحصة. ولما أخذ في شرح الدرس - دون أن يحس بوجودي حمدت الله - ولم تكذ تمضي لحظات حتى دخل المفتش، وأخذ يناقش التلاميذ أما الأستاذ كنعان فكان يقف، مطبقا شفثيه، وعينيه مفتوحتان، وقامته تميل إلى اليسار والى اليمين تباعا، حسب الجهة التي تخرج منها الإجابة. وكان وجه الأستاذ يتلون في أثناء هذه المدة حسب نوع الإجابة التي يقولها تلاميذه للمفتش. فتارة يشرق بالبشر، وتارة تتقلص عضلاته امتعاضا من غفلة التلميذ، وبلادة ذهنه. وطالت المناقشة على هذا الحال إلى ما يقرب من نصف ساعة طالما أشتدت فيها أعصاب الأستاذ، وطالما ارتخت. حتى بدأ الإرهاق عليه، وزاد ذلك وضوحا ما عرفناه عنه من شدة الاعتداد بنفسه. والفخر على غيره من أساتذة الفلسفة، وفي هذه اللحظة شعر المفتش بطول المناقشة وضياح الوقت في موقف مائع دون أن يتمكن من أخذ فكرة صحيحة عن مستوى التلاميذ، فصمت برهة ثم قال " اسمعوا يا أولادى. يظهر أن المناقشة طالت. وعلشان نختصر الموضوع سأوجه لكم سؤال واحد. وإذا أجبت عليه سأترككم " فأنصت الطلبة إليه باهتمام شديد وهو يقول " نقد

أرسطو نظرية أستاذه ولكنه لم يأت بجديد! وبدأت الإجابة على هذا السؤال مستحيلة في بادئ الأمر. فلم يتحرك أى طالب.. فأعاد المفتش سؤاله مرة أخرى، وبدأ ينظر إلى التلاميذ وهنا قفز طالب من الوسط وراح يقول . أستاذ أرسطو هو أفلاطون. ونظريته هي المثل وما قاله افلاطون من أن النفس هبطت من عالم المثل إلى الأرض، واتخذت لها جسدا تعيش فيه، ثم انقطعت الصلة بينها وبين هذا العالم العلوى، أما أرسطو فقال ان الشيء يتكون من جزءين - الهولى والصورة، وباندماج كل منهما مع الآخر يتكون الشيء، وبغير ذلك لا يكون الشيء.. وبمقارنة القوانين يظهر لنا جليا أن أرسطو لم يأت بجديد." وعند هذا الحد نظر المفتش إلى هذا الطالب نظرة أعجاب ثم التفت إلى كنعان أفندى وقال " حقا إن الفيلسوف لا ينتج إلا فيلسوفا " وكان ذلك عبارة عن ترجمة لما يكنه حضرة المفتش من تقدير واعجاب بعبرية الأستاذ كنعان - فأشرق وجهه فرحا وبدأ يروح ويغدو فى خيلاء الطاووس، حتى إذا ما خرج المفتش عاد الأستاذ يؤكد أهميته لطلبته وهو يقول " فاهمين المفتش قال إيه ..؟! لأنه يعرفنى جيدا. وما كان ليقول غير هذا وأنا قلت لكم مرارا عديدة من قبل إنكم محظوظون. غيركم فى المدارس الأخرى مش فاهمين شي، لأن المدرسين انفسهم لا يفهمون الفلسفة! والتلاميذ ينصتون إليه ويتظاهرون بالاهتمام، وفى صدر كل منهم ضحكة مكتومة، حتى عند خروج الأستاذ، فإذا هم يهتمون بالوقوف ويفجرون ضاحكين وهم يشيعونه عند الباب.

وقرب نهاية العام، وقت كتابة استمارات الشهادة الثانوية، حضر الأستاذ كنعان ووزع الاستمارات على التلاميذ لكتابة البيانات المطلوبة. وكان لدقته وجديته المعهودة تسند إليه مثل هذه الأعمال الرسمية وله فى ذلك قول مأثور عن نفسه سمعناه منه عندما أختير أميننا لصندوق جمعية أولياء الطلبة " لا تخافوا بأ أبنائى فإن أموالكم ستوضع فى يد أمينه " وكان كنعان أفندى أميننا حتى فى الشكليات الرسمية. إذ يترأى فى هذه الأحوال وكأنه قد الغى عقله كلية إذ كان يقول عادة لمن يناقشه فى شيء يتعلق بهذه

الأمور" كده وبس ذى ما هي!" وبعد أن بدأ الطلبة فى ملاً استثماراتهم وجاء الدور على خانة نوع الدراسة التى يريدونها كل منهم بعد المرحلة الثانوية. راح الأستاذ يسأل كل منهم ليتعرف على رغباتهم وذلك حرصاً منه على معرفة الطلبة الذين يرغبون فى دراسة الفلسفة حتى إذا قال له أحدهم " سأدخل كلية الحقوق " نظر إليه الأستاذ نظرة اشفاق وهو يبتسم ويقول " بس الحقوق." وصمت قليلاً فألح عليه الطالب قائلاً " بس إيه يا أفندى " واتسعت ابتسامته الأستاذ وهو يقول " بس الحقوق دى تضيع وقت " يا بنى وهنا انفجر التلاميذ فى ضحكة عالية. أحدثت فرقة أثارت أعصابه فوقف فى مقدمتهم وصاح " الهدوء. الهدوء، والنظام يا حيوان أنت وهو " وكانت آخر كلمة قالها وهو يجمع الاستثمارات " النظام يا كلاب. النظام" حتى إذا أخذ يتسلم استثمارتى نظر إلى وهو يقول " أحب ألا تحرمنا من أنسك" وكانت هذه تعنى إعادة السنة، فاستندرت نحو الباب خارجاً وأنا أقول " لا أرانى الله مكروها بعد اليوم "

11- قطرات من الدم

النيل الأسمر الساحر، الذى يربط ماضيها بحاضرنا، ويقوى اواصر الأخوة والألفة بين شعبنا وشعوب قارة افريقيا طوال آلاف السنين – هذا النهر الخالد الحبيب له مع قريتنا الصغيرة قصة فهو منبع حياتنا ومصدر فخرنا ولكنه لا يسير دائما على وتيرة واحدة، فأحيانا تعتريه حدة المزاج فيثور ويغضب ويتحول الى طوفان يكتسح فى طريقه كل شىء. ونصبح فى قبضته ضحايا.

وقد ألفنا الحياة على شاطئه زمنا طويلا، حتى بتنا نرى فى غضبه وعنفوانه ثورة للتجديد والتقدم، واعلانا عن حاجتنا الى التغيير. وقد عشت مع ابناء جيلى دورتين هامتين للفيضان بلغ فيهما قمة عنفوانه وتمرده. ثار عام 1946، ثورة جامحة فاكتسح الجسور وأغرق الزرع وأوشك ان يكتسح البيوت فى طريقه، لكنه لم يقوى عليها لأن استماتة الناس وصلابتهم فى حمايتها واقامة الجسور ليلا ونهارا. استماتة وصلابة لم تفترقان لحظة واحدة فى ظل التهديد المستمر قرابة شهرين من الزمان. وثار مرة ثانية عام 1954، كانت ثورة عاتية جامحة لم تصمد لها محاولات الناس فى صد غطرسه فاندفع يقضى على كل شىء. اهلك الزرع واكتسح البيوت وتركنا بلا زاد أو مأوى.

اعتاد الناس فى قرينتنا منذ زمن بعيد على هذا النوع من الحياة. ففى كل عام يأتى الصيف، ويأتى معه الفيضان لا يخلف موعده إلا نادرا فى بعض سنوات الجفاف. وهذه ليست سنوات راحة أو أمل ففيها يجف الزرع وتتناقص المحاصيل فتزيد المتاعب والآلام، ويبدأ شبح المجاعة يساور الناس. ومن هنا كانت دعواتنا وصلواتنا أن يرسل الله الفيضان فى ميعاده كل عام.

ربضت قرينتنا على ضفة النيل منذ عهد الجدود ولا أدرى فى عهد أى جد منهم ظهرت. لكن أبى نشأ هنا فى هذا المكان، ونشأت أنا أيضا وجميع أخوتى لأجد بيتنا هنا وبيوت أعمامى وجيراننا. وعندما كبرت وبدأت أدرك أمور الحياة سمعت صرخات الإستغاثة، وقد نبهت حواسى لمخاوف الخطر، فكنت أحسب أنذاك حسابه، وكثيرا ما تصورت نفسى غارقا فى أعماق النيل الثائر المزمجر، وأنا اتلمس السبيل إلى النجاة. وقد كبر هذا التصور فى رأسى، فرحت أداعب النيل فى أوقات هدوئه وصفائه وبين أحضانه تعلمت العوم.

ومرت الأعوام ومازلت أكبرحتى تخرجت من الجامعة سنة 1960 وعينت مدرسا فى مدرسة بيلا بكفر الشيخ ولازالت صورة الخراب الذى خلفه فيضان 1954 ماثلة فى ذهنى. فلم يكد يمر سوى أسبوعين فى شهر أغسطس فى أوائل السنين من القرن الماضى، وقبل اكتمال السد العالى حتى ارتفعت الأصوات تنبه الى خطورة الفيضان، ويوما بعد يوم بدأ الكفاح هادئا. بدأ بعض الرجال من أصحاب المزارع المعرضة للضرر. أى المزارعين الذين تههم المصلحة المباشرة، كل من عنده مزرعة على النيل راح يقف فوقها ليقوم حاجزا بينها وبين الماء وهو يياشرها يوما بعد يوم، يرفع ويقوى فى هذا الحاجز كلما ارتفع مستوى المياه فى النيل، لكن هذه الجهود الفردية لا يمكن أن تصمد أمام فوراته المفاجئة وهجومه

الذى يشتد عنفا فى بعض الأحيان فيطغى على كل مقاومة، وكان لزاما على أهل القرية ان يجتمعوا ويتشاورا ويجمعوا أمرهم على مقاومة الفيضان واقامة الجسور كما اعنادوا في مثل هذه الأوقات، وقد أفادتهم هذه الطريقة على مدى عشرات السنين حتى كان عام 1954، إذ كان الفيضان أسبق فى توجيه ضرباته فأغرق الزرع كله وطاف بالدور ثم أتى على كل بيت لم يصمد أمامه وتشرد الناس فى العراء يندبون حظهم العاثر الذى جعلهم بلا مأوى. وفى هذه الكوارث يتعذب الفقراء الذين يخرجون وفى أيديهم قبض الريح فيعانون كل أنواع الآلام.

وقد أعادت الأصوات الصارخة المستغيثة هذه الصورة التعيسة الى خيالى فلم أحتمل فأعددت نفسى للمشاركة فى الكفاح بصرف النظر عن أى اعتبار. وبدأت المعركة تشتد فاصبحنا نسمع الصراخ مرة أو مرتين فى اليوم. وقد يأتى ذلك فى الصباح أو المساء أو فى آخر الليل. أو فى الظهر وفى كل مرة أجرى فيها أنا ومن معى من الأصدقاء الى مكان الخطر. هناك حيث نجد الناس قد بدأوا يقيمون السدود فنأخذ مكانا بجانبهم فى حمل "مقاطف" التراب وقطع الحشائش نقوى بها "اللبشة" حتى تصمد فى وجه الموج. وهكذا نطمئن على قدرة هذا السد على المقاومة فنعود الى ديارنا نستريح فى انتظار استغاثة أخرى ولا يبقى منا سوى الذين بحرسون المكان.

ولكن فى هذه المرة رأيت الناس تتراجع وتتكاسل وسمعت من بعضهم نبرة التسليم بغرق البلد وهم يقولون "البلد انقسمت وما فيش فايده" أثر كل ذلك فى نفسى وفى نفوس أخوانى الذين يشاركوننى الشعور بالخوف على سلامة الناس وأقواتهم وبيوتهم وخصوصا الفقراء، وكم لعنت الأنانية والجهل وحب التظاهر. فأنا أعلم السبب الذى قسم صفوف الناس وأضعف قوتهم. انها الانتخابات. فيكفى ان يكون فى كل قرية بعض الأغبياء لكى يثيروا فى شعبها التناحر والتناذب والخصام وقد نقت على الناس العاديين جهلهم بقيمة الحياة اذ فهموا ان المسألة تشريف وتكريم وسلطة ونفوذ. هذا

كل ما عرفوه عن الخدمة العامة سواء عضوية اتحاد قومي أو جمعية تعاونية وهذه عدوى سرت الى نفوسهم من الأغنياء والحكام السابقين. فقد رأوا تكالبهم على المناصب لتكون عوناً لنزعة استغلال الناس واستذلالهم. هذه هي العدوى التي سرت الى أخى الأكبر فانصرف عن الركب وأخذ ينفذ يديه من مشاكل أهله وأهل جبرته. رغم أنه مازال يتولى منصبا إدريا في القرية، هو منصب شيخ القرية.

حزت الصورة في نفسى كما حزت في نفوس الكثيرين من أمثالى. ومن بين هؤلاء الشبان من كنت أختلف معهم في طريقة قضاء وقت الفراغ فلا أذهب كثيرا إلى مجالسهم غير أننى غيرت رأى الآن وأخذت أحرص على قضاء الوقت معهم. فانضمت اليهم ليلا أشاركهم لعب الطاولة حتى إذا جدت ساعة الجد دعوتهم الى العمل، وهى فرصة نتكلم فيها عن أهمية التكايف والتعاون فى هذه الفترة الحرجة، وحجتى هى أن الخسارة ستعم الجميع. وكم أدهشتنى الحقيقة فقد وجدت فى نفوس معظمهم غيرة انتقل تأثيرها الى كل من رأنا نحمل على أكتافنا كتل الطين وحزم الحطب فاخذته الحمية فانضم الى صفوفنا. وقد ملأنا ذلك ايمانا بالنصر ودعانا الى الاحتفاظ بحماسنا للعمل خصوصا ونحن مازلنا نتوقع زيادة الخطورة.

ان كل يوم يعنى بالنسبة لنا معركة جديدة أكثر عنفا وأشد خطورة من سابقتها، هكذا حتى كان ذلك المساء الهادىء اذ تصورنا بعد جهاد النهار أنه مادامت الريح قد هدأت فإن الموج ساكن ولا خطورة فى ذلك. فعاد كل منا الى منزله لتناول عشاءه ولم يكذب يوضع أمامى الأكل حتى سمعت صوت الاستغاثة – فقفزت أعدوا. وأنا اقطع الطريق مسرعا رغم الظلام الذى كان يفرش أستاره على دروب القرية وطرقاتها، كنت مدفوعا بقوة غريبة جعلتنى لا أخشى المرض الذى كان يصيبنى من جراء أى تعب. دفعنى فى الطريق لا أدرى ولا أحس بما يمكن أن يصدم قدمى من أحطاب القطن أو

جذور الذرة المغروسة فى الأرض وأنا أجرى بأقدامى حافيا بعد أن أمسكت
حذاءى فى يدى وأخذت أقفز فوق القنوات والسدود حتى وصلت الى "
القطع " وكانت نقطة خطيرة عرضت جهودنا كلها للضياع. فالجسر الذى
يحجز مياه النيل يوجد خلفه مصرف مياه فلا يجد ما يسنده من الخلف. وقد
جعله هذا ينقلب فجأة وأخذ الماء يتدفق بقوة ليقطع على الناس سبيل الحركة
وأمام هذا المنظر لا يمكن للإنسان إلا ان يكون فدائيا يلقي بقوته مرة واحدة
للعمل. وأخذ كل واحد مكانه - البعض يحمل التراب والبعض الآخر يلقع
الحطب وكثيرون يلقون بانفسهم فى فم القطع ليمنعوا تدفق المياه الى أن يتم
اقامة سد، وفى وقت لا أدرى مقداره أقيم السد واتصل الجسر وتوقفت
المياه. والتفت الى الوجوه أتبينها فرأيت وجوها كثيرة جديدة جذبتها الروح
التي سرت بين الناس. ولا أنسى منظر الحاج سيد وضخامة جسمه التي
تحسده على حمله. لقد جاء يلهث فى الدقائق الأخيرة، وما كاد يقترب منا
حتى انزلت رجله فسقط فى الطين. وقد اثار هذا موجة من الضحك
أعقبتها راحة الاطمئنان الذى شمل الجميع.

عدت فى ذلك المساء مبلا يعلو الطين ملابسى وشعرى. ولم أكد أدخل
البيت حتى قابلنى أخى الأكبر على الباب فنظر إلى فى حنق وقال:
" ماشاء الله يا حضرة الأستاذ يامدرس الثانوى "
وغازنى موقف أخى هذا وجموده أمام هذه الحال فرددت عليه بلهجة شديدة
-
كفاية خربتوها أنت وأمثالك!

واندفعت الى داخل المنزل ولكنه تبغنى حتى وقفت فى نهاية باب
الصالة الداخلى إذ أخذ ينادى أمى ويقول:
" شوفى الأفندى عامل إيه " وكنت أتوقع ثورة عنيفة من أمى. فهى تخشى
على صحتى دائما من تعرضها للتعب والبرد، ولكنها رفعت وجهها الى هذه
المرّة، وهى تبتمس وكأنها لا تصدق ماترى و تقول " طيب ماله سيبه أنت

وابعد عنه " ثم اخذت ترسم في وجهى علامة الصليب وتقول " العين باردة عليك يا حبيبي. أه لو كنت أعرف لضربت زغرودة عالية. أنا فرحانة اللي المرض بعد عنك " ثم واصلت كلامها فى نشوة " يمكن ملايكة البحر يشفوك " وعندما سمعت هذا الكلام شعرت بقوة جديدة تسرى فى كيانى ورأيت أخی الأوسط يجلس وهو يضحك ويقول "غير ملابسك وتعالى أتعشى" أما أخی الأكبر فوقف يسخر ويقول لأمى "يافرحة الهبله – بابنها" هو كل الأفندية بيثيلوا الطين زيه. هو ده التعليم اللى خده " وسكت فى انتظار أن أرد عليه وجلست وامامى الطعام وإلتفت إليه قائلا " يجب أن تعرف أن الذى دعائى الى أن أغوص فى الطين هو موقفك المخجل. أنا لا أتصور أن ينظر الناس حولهم فلايرون أحدا منا فى ظرف حرج مثل هذا. بأى حق تدعى أنك تمثل هؤلاء الناس أو تشارك فى حكمهم؟ أتظن ان العضوية مغنم أو سلطة نزهو بها. اخدموا الناس أولا حتى تثبتوا أحقيتكم بتمثيلهم.

" ورد على قائلا " دول خونة باع كل منهم صوته بعشرة قروش ولا يستحقون الخدمة " قلت على الفور أبدا. لقد فشل الناس فى التمييز بينكم لشدة التشابه فليس بينكم مخلص واحد. ومايدفعكم الى الصراع على هذه المناصب هو الأنانية وحب الظهور. لقد رأى فيك الناس يوما شابا متحمسا مخلصا لهم ولمشاكلهم. ولكن الأيام غيرتك فقد أولوك ثقتهم بأغلبية كبيرة وأخذت بينهم مركز القيادة فلم تقدر ثقتهم ولم تدعوهم ليشتركوا معك فى تدبير الأمور. واندفعت تقدم نفسك لكل مجلس تريد أن تجمع كل شىء فى يدك. هذا السبب الذى جعلهم ينقضون من حولك ويبيعون أصواتهم. ففى كل عائلة واحد يصلح لأن تدعوه لكى يقف معك وبهذا يشعرون أنهم يشاركون فى المسؤولية. وبهذا تقوى بهم وينقون بك فينهزم أعداءك وأعداءهم وتحل المشاكل بهمة الجميع.

وراح يسمع كل هذا الكلام وأنا ألقيه عليه كدرس ألقيه على تلاميذى، وكانت أمى وأخوتى ينصتون فى شغف. وأخيرا هز رأسه وقال فى نبرة حزينة " سيبك من الكلام ده ماعدش ينفع " ودعانى ذلك الى مواصلة الكلام " ماذا ينفع إذن ياشيخ البلد؟ هل تتصورماذا يحدث لو انهدمت الجسور وتدفقت المياه فى كل جانب. ماذا يحدث تفنكر " وأجاب فى هدوء " ولا حاجة أن أرضنا داخل جسر الطرادى ولن يغرق لنا زرع "

والبيوت؟

لن يحدث لبيتنا شىء

" وبيت أختك واولادها الصغار

وهنا سكت لأن بيت أختى يوجد فى جانب منخفض ومن المحتم أن المياه سوف تجرفه وتجرف ما يحيط به. لذلك لم يجد شيئا يقوله فصمت قليلا ثم قال " وهل مفروض عليك تشيل الطين بالليسانس بتاعك، مش كفاية الفلاحين."

وشعرت بأننى قد بدأت أنتصر فقلت " إننى أشعر الآن بأن الليسانس قد اصبحت له قيمة عظيمة. إن كل بقعة من الطين أضافت اليه مرتبة من مراتب الشرف. فإننى لا أستطيع أن أتصور حال الناس الفقراء الذين لايجدون قوتهم عندما يقضى الفيضان على زرعهم وحيواناتهم ويشردهم فى العراء. ان الإنسان يتألم لهم الآن فما بالك لو حدث ذلك. وقد رأينا ما حدث فى المرة السابقة حتى بيتنا قد أصابه التصدع.

وهنا تولى أخى الآخر الكلام مؤيدا " والله أصول نقف مع الناس. الشر بيعم والخير بيعم" عندئذ أطمأنت نفسى فتناولت عشائى فى هدوء ولذة.

فى الصباح جاءنى زميل لى ربطت بينى وبينه ظروف الحياة فى أيام الدراسة واللعب. لكنه يعمل فى مكان آخر بعيد عنى وأصبحت الأجازة

فرصة ننع فيها بلذة اللقاء والمشاركة فى مشاكل العمل ومناقشتها، جاعنى فى هذا الصباح يدعونى لزيارة جار لنا مريض ودخلنا إليه فوجدناه جالسا وقبل أن يحكى لنا الرجل ظروف مرضه بدأت صفارات الإنذار ترن فى كل اتجاه فخرجنا فرأينا الناس يجرون فى خوف واضطراب. النساء والأطفال يصرخون فى هلع ورعب. فاندفعنا جريا فى إتجاه الإستغاثة. وفى دقائق وصلنا. وكان منظرا رهيبا رأيتة فى عيون الناس وتصرفاتهم فى تلك اللحظات. رأيت كل واحد منهم يفكر فى نفسه ويجمع ملبسه ليعود الى بيته وقد فقد الأمل.

بدأت المياه فجأة تتدفق فى مساحة كبيرة جعلت الناس يصابون بالذهول حتى وقف كل منهم بضرب كفا بكف. عندما رأيت أنا وزمىلى فرج الناس يعودون الى بيوتهم صدمت. ولكنى لم أياس فدعوت زمىلى الى الوقوف فى طريقهم وتوجيههم الى العمل. الكل يقول:

" ما فيش فايذة. فى آخر الجسر قطع كبير. لم نستطع أن نسده " وواتنتى فكرة أو توهم ولاباس فرحت أمسك بهم وأقول " إن هناك من يسدون الجزء الآخر " وهذا نصيبنا نحن وبدأ كل من يقترب منا ينضم إلينا حتى أصبح الناس كتلا متراصة فى وجه المياه وجريت فى لمح البصر الى البلدة لأدعو الآخرين ليحضروا لهم عروق الخشب والبوابات والخيش وحضر ذلك بفضل عزم الرجال الذين استجابوا لدعوتنا، وواصلنا العمل حتى أصبح هذا الجزء يدعو الى الاطمئنان. فانتقلنا لنساعد الآخرين الذين قويت عزيمتهم عندما عرفوا أننا نقيم سدا فى مكاننا.

رأيت الفلاحين الطيبين يندهشون مما نقوم به ويسأل بعضهم " الأفندية مالهم ومال الطين " وكأنهم خلقوا وحدهم لهذا الطين يحملونه الى الأبد. ولكننا واصلنا العمل معهم وعرفناهم أن هذا واجب الجميع فازدادت حماستهم مما جعلنا نبني سدا يبلغ مائتى مترا بطول القطع فى حوالى ساعتين. وقد أدهشنى أن أجد إثنين من أخوتى بين العاملين فى حماس وقوة وملأنى الفخر. شعرت أننا نجحنا. إن هذه القوة لايمكن أن تهزم مهما زادت

المياه. وعندئذ فقط أحسست بالتعب فرفعت رأسي لأستريح فرأيت الدماء
تلف أصابعي مختلطة بالطين فعرفت أنه جرح حدث لي وأنا أقتلع
الحشائش من وسط الطين دون أن أدري، وخطوت نحو النيل ومن فوق
السد الذي بنيناه مددت يدي وغسلتها. وأنا أقول " حسنا! لقد كان القدماء
يفتدون محاصيلهم بعروس يقدمونها للنيل فدية كل عام فلا بأس أن يقدم كل
مناقطرات قليلة من الدم. وعاد الجميع الى بيوتهم بسلام.

أما أخي فقد بقي مع آخرين وتعهد بالاشراف على حراسة
الجسر حتى تنتهي خطورة الفيضان.

12- الشيخة سعدة

كنت أسير مع صديقي لتوديعه خارج القرية، وبعد أن قطعنا
مسافة ليست بقصيرة، وصلنا إلى كوبرى عباس بك. وهناك كان ينبغي أن
أودع صديقي وأعود ولكنني لم أفعل، وواصلنا السير حتى مسافة طويلة

فى طريق تحف به الأشجار من كل جانب. على يمينى سور جميل، تتدلى من فوقه فروع اللبلاب المتشابكة بأزهارها الزرقاء والحمراء والبيضاء فتسج حلة مزخرفة جميلة تروق للعين أن تراها. وترتاح لها النفس حين تطمئن إليها. وهذا السور الذى يمتد مسافة كيلو مترا تقريبا يحيط بستانا أروع جمالا وبهاء وتتوسطه فيلا كبيرة هى أية من آيات الفن والجمال المعماري، استقدم لها عباس بك المهندسين والخبراء من اوربا ووفر لهم كل الأدوات والمواد المطلوبة من أوربا. بناها عباس بك المحامي المشهور فى هذا الموقع الجميل ليستمتع بالهواء النقى، وبالانسماة العطرة التى تتنفسها الأزهار. ولم تكن هذه الأرض ملكا لهذا الرجل عن طريق الوراثة مثلا ولكنها كانت قطعا صغيرة اشتراها من أصحابها الفلاحين البسطاء الذين يغريهم المال أحيانا وتجبرهم الحاجة فى أغلب الأحيان. هذه المساحة التى يقوم حولها السور تبلغ عشرة فدادين كان يزرعها أكثر من ثلاثين فلاحا. وبعد أن اشتراها حضرة البك بدأت تظهر نواياه الحقيقية حينما أخذ يغرس الأشجار ويخطط أحواض الزهور. وهنا بدأ يحز فى نفوسهم الندم والألم على الأرض التى باعوها. لقد كانت قراريط قليلة تملكها كل أسرة منهم، ولكنها كانت تدر عليهم خيرا دائما طول العام من زراعة الخضروات الموسمية. أما الآن بعد أن خدعهم البك واستولى على الأرض تحت وهم أنه يريد أن يبنى مصنعا لتشغيل شباب القرية ومدرسة اعدادية لتعليم أولادهم. والآن قد ضاعت الأرض وفقدوا أهم مصدر لرزقهم. وضاعت النقود التى أخذوها كأي مبلغ كان يأتي من صندوقين طماطم أوبامية. وهكذا بدأت الآهات تخرج من الأفواه.

لكن ماذا ينفع الندم بعد العدم. لقد خدعهم هذا الرجل بفكرة إقامة مصنع لتشغيلهم والآن ماذا يفعلون؟ لقد دخل بكل إمكانياته لزيادة مشكلة البطالة بين أبناء هذه القرية. فهو يملك ثلاثمائة فدان ضمن زمام القرية الذى لايزيد على خمسمائة فدان. أى أنه يملك أكثر من نصف أملاك

البلدة والجزء الباقي موزع على عدد قليل من الأفراد يسمون أعيان البلد وهناك أكثر من ألف شخص لا يملكون شيئاً ذا قيمة.. وهكذا استطاع البك ان يتحكم فى مصائرهم، لا أحد يستطيع الوقوف أمام سلطانه، أو مطالبته ببناء المصنع، فأخوه يتولى منصب العمدة وأخوه الثانى شيخ البلد، والمأمور والمدير وغيره من الحكام أصدقاء له.

وتتفاقم مشكلة البطالة بمرور الوقت لأن البية يزرع أرضه لحسابه يحرقها بالجرارات ويرونها بالماكينات والفلاحون من حوله يجلسون على الجسور فى انتظار من يدعوهم للعمل، وهذا يجعل المشرفين على أراضى البك يستغلون حاجتهم ويعطونهم أقل أجر. الأدهى أن البك أخذ يتوسع فى الأرض المحيطة بالقرية فزرع حديقة للفاكهة وهو فى غير حاجة إليها، وظهر أن الدافع الحقيقى أن الحكومة كانت تفكر فى الاستيلاء على هذه البقعة لتقيم فيها وحدة صحية ومدرسة لخدمة هؤلاء الفقراء، فتدخل هذا الرجل مرة أخرى ليبعد الرحمة عن هؤلاء المساكين وكأن له معهم ثأر قديم. وبمكر الثعالب استطاع أن يؤجل مشروع الحكومة بحجة أنه يبحث لها عن مكان آخر حتى تمكن من بناء السور وبنى إلى جانبه هذا المسجد الجميل لكى يدفن فى ضريحه بعد موته ويكتب على واجهته إسم عباس بك.

وبهذا يزيد من شهرته ويضمن لاسمه الخلود، هكذا ظن عباس بك وهكذا يظن أمثاله ممن أغراهم حب الدنيا والشهوات. وكأنه اراد لكل من يمر على هذا المكان أن يزرع زفرة المغلوب أو شهقة المطعون. أو كأنه ينتقم من هؤلاء المعدمين لأنه كما يقولون لا يرحم ولا يريد لرحمة ربنا أن تصل إليهم. فهذه الأسوار العالية منعت إقامة وحدة علاجية ومدرسة.

منعت عنهم الصحة وتركتهم للمرض وللبلهارسيا تفتك بهم، فكيف لا يكرهونها. هذا السور لا يقل إجراما ولا اقترافا للذنب من سجن الباستيل وسجن بطرسبرج.

فى نهاية السور ودعت صديقى وقلت راجعا. وفى طريق العودة وجدت الشيخة سعدة كما يسمونها، واقفة فى مواجهة السور تمسك ببعض الحصى وتذفها واحدة بعد الأخرى، فوفقت أتأملها فى زيتها الأبيض وطرحتها البيضاء التى اعتادت أن ترتديها دائما. والشيخة سعدة تنتمى إلى بيت من البيوت الكريمة الذين يتبارك الناس بزيارتهم. وهم ناس طيبون محبون للخير يسالمون الناس جميعا ونحن نحبهم وكنا نستقبلهم بالترحاب حين يمرون من أمام بيتنا، وكان لى صديق ينتمى إلى هذا البيت هو صلاح، زميلى فى المدرسة الإبتدائية وقد دامت صداقتنا حتى توفاه الله. ونتيجة لحسن أخلاقه وهدوء طبعه أطلقنا عليه لقب الشيخ صلاح. وكانت الشيخة سعدة تمر ببيتنا وتجلس معنا أحيانا كثيرة وكنا نسمعها تتكلم كلاما كثيرا وبسرعة كبيرة وأحيانا تقول كلاما غير مفهوم. ولكن الذى كان يضحكنا منها هو ماتقوله فى مواجهتنا " محمد ومحمود يروحوا الجنة الاتنين لوكانوا فى المعاصى، أما حنا وحنين هيروحوا النار" وكنا نضحك معها ونقول قولى تانى ياشيخة سعدة. فلما رأيتها واقفة تلقى بالحصى على قصرعباس بك وتبرطم بالكلمات وقفت أنصت إليها فسمعتها تقول:

فلاحين فلاحين. تجار وبياعين

عمد ومشايخ. وكلهم عاملين

عساكر وحرامية.

وهنا تقدمت إليها وسألته ماذا تقولين يا شيخة سعدة، فأشارت إلى المبنى الجميل " هناك هناك في داخل القصر العظيم امرأتان وحوض من الزجاج تلعب فيه الأسماك وحاجات جميلة وزخارف وألوان.. أشياء جميلة جميلة ... إنها الجنة." كانت تتكلم بسرعة عجيبة وتعيد الكلمة أكثر من مرة وكأنها تؤكد ماتقول: ثم عادت تشير وتتكلم " هناك هناك جنة جنة وفيها امرأتان والبيه والخدامين. الدنيا كلها هناك. مسكين عباس بيه " ودهشت لكلامها رجل يملك الجنة فكيف يكون مسكينا. سألت بصوت عالى لعلها تسمعنى، إزاي يا شيخة سعدة؟ وعادت تشير الى القصر بنفس الطريقة وتقول " هناك في داخل الجنة العظيمة يعيش عباس بيه ومعه امرأتان ..ثلاثة في الجنة وما فيش أطفال " وهنا فهمت مقصدها وهو أن عباس بك لم ينجب أطفالا، فعدت الى بيتى وتركت الفلاحين الذين تجمعوا حولها يضحكون من كلامها ويقولون "مسكينة يا شيخة سعدة ".

13_ ذات الرداء الأخضر

كنت أتتبع لدخول جامعة القاهرة. وكنت واثقا من قبولى بها. إن مجموعى كبير يؤهلى لأى كلية من كليات الدراسات النظرية. وكانت كلية الآداب هى أول كلية كنتبها فى بطاقة الاختيارات. وأنا أحس الآن أن مستقبلى فى دراسة الأدب، ومن ثم أخذت أفكر فى أى الأقسام أختار. إن هوايتى هى القراءة والكتابة. هل أدخل قسم صحافة لأجعل من الهواية حرفة أوأدخل قسم اللغة الإنجليزية التى أحبها جدا لكى أتقنها وأتعمق فى فى آدابها، ولأننى عاشق للأدب العربى وللشعر العربى قديمه وحديثه وأحفظ منه مئات الأبيات وبعض القصائد كاملة . وأنا أصبحت أحسن التعبير بأسلوب متميزوجميل فى كتابة موضوعات الإنشاء التى كانت تعجب أساتذتى فى المدرسة وكانوا يشيدون بها فى الفصل أحيانا. وقد يساعدى هذا على أن أترجم من الانجليزية للعربية وأمضى فى محاولاتى الكثيرة فى كتابة الشعروالقصة القصيرة. لقد علق أحد مدرسى اللغة العربية على إحدى قصصى قائلا " نسيم...إنها بداية ناجحة وأنا أهنئك ومنتظر منك الكثير"

اشتغلت هذه الأفكار فى خيالى، ولكنى كنت متردد أى القسمين أختار. فرحت أستشير زملائى الذين سبقونى. قال لى أحدهم أدخل قسم اللغة الإنجليزية تتعلم اللغة وتكتسب ثقافة أدبية واسعة وعميقة. لقد قرأت جريدة الأهرام يوم ظهور النتيجة وقرأت أسماء العشرة الأوائل على قسم أدبى وكنت أنتظر أن تكون منهم. وكانت السابعة بنت اسمها سالى سمعان تقول إن أباه مفتش أول اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم. وقد سألت المحرر عن القسم التى تختاره فقالت قسم اللغة الإنجليزية لأنها حصلت على أكبر درجة فى هذه اللغة. وكانت هذه الكلمات هى الفيصل فى الموضوع. لقد تعبت من التفكير وقد اهتديت أخيرا بمن يفوقنى علما ولغة. كان سبب الحيرة أحيانا أن درجاتى فى اللغات تؤهلنى لقسم فرنساوى وقسم انجليزى وقد ارتحت أخيرا لاختيار هذه الفتاة، وأصبحت أمنيته أن ألتقى بها فى قسم اللغة الإنجليزية وأتعرف عليها فزامالتى لمثل هذه الفتاة يملأنى فخرا ويشعرنى بأن تفوقى فى الثانوية العامة قد قفز بى لمستوى أبناء الذوات. وقد وجدت نفسى فعلا بين أبناء الذوات، حين عرفت إن الجالس بجوارى هو حازم ابن بهى الدين بركات باشا رئيس وزراء مصر الأسبق. وقد عاد من لندن نتيجة العدوان الثلاثى واصبح زميلا لى فى القسم، وبعد أن استوعبت هذه الحقيقة رحلت أترنم بقول الشاعر العربى:

العلم يرفع بيوتا لاعماد لها والجهل يهدم بيوت العز والشرف.

وهنا عدت أتذكر الاسم سالى وأعيده لنفسى: سالى يا يسالى.
ياله من اسم موسيقى جميل، وقع على نفسى وقع السحرفسكرت

دون شراب، وبدأت أفكر فى شىء آخر غير الإسم. أفكر فى صاحبة الإسم. إن الإسم جميل وساحر فهل تكون هى جميلة وفاتنة؟ يا للحظ السعيد أن. تكون هذه الفتاة ابنة الرجل المعروف، وهنا قفز إلى ذهنى شىء جديد. وما فائدة الزمالة إذا لم يكن هناك تكافؤ فى الوضع الاجتماعى. هل يمكنى أنا الريفى الفقير أن أتطور بهذه الزمالة إلى مستوى الصداقة أو الحب؟ لكن هذا يحتاج إلى الكثير وأنا لا أملك شيئاً. ولكن ماهذه الأفكار السوداء. ما هذا كله لماذا أفكر فى تجنب البلاء قبل وقوعه. إن الحياة أمل وعمل. ربما أعمل وأنجح وأصبح شيئاً مذكوراً. وإن غدا لناظره قريب.

وبعد أيام قليلة حزمت أمتعتى وتركت قرىتى بريف ممالوط وذهبت ألى القاهرة، مدينة العلم والنور. وبعد أن قيدت اسمى فى قسم اللغة الإنجليزية، أخذت أبحث فى الكشوف على حائط الممر الذى يتوسط مبنى القسم حتى وجدت اسمها فى المجموعة (ج) فكتبت اسمى فى هذا الكشف، وفى أول محاضرة أدخل فيها المدرج اخترت لنفسى مكاناً منعزلاً ورحت أتلقت حولى بنظرات ذائغة حذرة وأنفاسى متقطعة كأن شيئاً ثقيلاً يجسم على صدرى. فكل ما حولى غريب بالنسبة لى . هنا بنات يجلسون بجانب أولاد ويتكلمن معهم. وأنا أعرف مقدماً أن هذا يحدث فى مدرجات الجامعة!! لكن الشىء الجديد على أنى لم أراه من قبل ولم أءلفه.

والبنت فى بلدنا عنما ترى شابا تبتعد عنه وتحاول أن تخفى وجهها وعينيها. بل تحاول أن تدخل فى جلدها حتى لا يرى منها شيئاً. بدأت أنفاسى تهدأ رويدا رويدا حتى دخلت علينا الأستاذة.

والقت علينا التحية وابتسمت. كانت شابة فارعة الطول نحيفة قمحية اللون باسمة الوجه. امسكت بكشف الأسماء وأخذت تتعرف على الطلبة والطالبات، وتمد رقبتها حتى ترى وجوههم عن قرب. وهنا تذكرت سالى وبدأت أشد أذنى، وأميل إلى الناحية التى تنظر إليها المدرسة. وبعد قليل انبعث الإسم من الصف الأمامى فى صوت خافت ضعيف، ثم انبعث صوت رقيق آخر يعلن إسما آخر، فلم أتتحقق أى واحدة تكون هى؟ فأخذت أنظر إليهما من الخلف وعينى مركزة على حركاتهما وهن جالستين، وتمننت لومعى أشعة إكس لأخترق بها هذه البلاطى السميقة وأرى وجوه أصحابها من الأمام.. من اليمين تجلس فتاة شعرها ذهبى اللون قصير منكوش بعض الشيء وترتدى بالطو أحمر، وعن يسارها تجلس فتاة صغيرة الرأس شعرها أسود فاحم، تعقسه من الخلف فى شكل ذيل الحصان. ومازلت أنظر ناحيتهما حتى اقتربت منى المدرسة وأخذت تنظر ألى باهتمام وتنصت لتسمع صوتى، سألتنى عن إسمى فأخذت أنتبه إليها وأجيب فى حياء وخجل مما جعل الكلمات تتعثر فى فمى بصورة لفتت إلي

الأنظارحتى الطالبتان اللتان تجلسان فى أصف الأول أدارتا وجهيهما إلى الخلف لرؤيتى فانتصبت فى وقفى فرأيتهما.

الأولى وجهها ابيض أما الأخرى فوجهها أسمر شاحب لكننى لم أتحقق تماما من هذه الوجوه أوأفرق بين أصحابها. يكفنى أنى عرفت أنها إحدى الإثنتين، وانتهت المحاضرة وخرجت مع الآخرين. خرجت وفى رأسى أفكار كثيرة وفى قلبى شوق غريب للمعرفة. وبعد فترة دخلنا مدرجا آخر، وكانت حالتى أكثرهدوءا. فجلست فى الصف الثانى بين أربعة زملاء ، ورأيتهما أمامى فى الصف الأول ثنائى عجيب تكاد تلتصق إحداهما بالأخرى. ثم دخل المدرس وحيانا بابتسامة عريضة وكان لصوته فرقة. وبدأ يتعرف على الاسماء واحدا واحدا ويكررالإسم أكثر من مرة وكأنه يحاول أن يحفظه، وأحيانا كان يعلق بنكتة لطيفة على بعض الأسماء فأوجد جوا من المرح والألفة. وهنا جاءت الفرصة لأعرف فتاة الأحلام والأوهام. ولعل جلوسى بين زملائى ملأ نفسى بقدر كبير من الارتياح والطمأنينة فلم أعد فى حاجة للخجل اواختلاس النظر إلى زميلاتى ، فالمسافة بينى وبينهما ضئيلة بل تكاد تكون منعدمة , فلو أننى حركت يدي قليلا إلى الأمام فربما لمست شعرها، وحانت الفرصة حين وقفت تعلن اسمها وكانت هى ذات الرداء الأخضر، وصاحبة الشعر الأسود الفاهم الطويل الذى يتدلى على ظهرها كذيل الحصان. إن طريقة عقصه تثير فى

خيالى نوارى وصور للذبول والفرسان فرحت أتأملها متوسطة الطول ممثلة قليلا لون بشرتها أسمر به لمسة من الشحوب. شعرت بصدمة أثارت حيرتى، أتكون هذه الفتاة هى صاحبة الإسم الساحر الرنان. مفارقة كبيرة بين الإسم وصاحبة الإسم. بين الصورة المتخيلة والحقيقة الماثلة أمامى. هكذا شعرت بها لأول وهلة. الاسم جميل كان يجب أن تملأه بصورة أشد جاذبية. لكن هذه هى الحياة تمنينا دائما بالكثيروفى النهاية تواجهنا بالحقيقة. لم تطل حيرتى فقد انتهت المحاضرة والكل من حولى يتحرك للخروج فاستيقظت من سرحانى وخرجت معهم.

عرفت الآن أننى سوف أراها كل يوم فى هذه الحجرة أو فى غيرها، وفى فناء الكلية أو على الكافتيرية. لكننى لم أتوقف عن التفكير فيها، وكنت كل يوم أرمقها بنظرات غامضة، وأرى أنها ليست دميمة كما ظننت لأول وهلة بل أحسست أن فيها أشياء جميلة ومريحة. هذا الوجه المستدير والشعر الأسود الفاحم الذى يرتفع من الأمام فيشكل تاجا ينحنى مع استدارة وجهها ثم ينتهى من الخلف بخصلات تنعقد فى الوسط ثم يتدلى على ظهرها بما يشبه ذيل الحصان. هذه الهالة الجميلة تحيط وجهها المستدير ذى التقاطيع الدقيقة فتصنع لوحة متناسفة التفاصيل تتوسطها عيان سوداوان وأنف دقيق وفم يشبه الخاتم، ملامح جميلة

وجذابة غيرت فكرتى عنها فبدأت أتعلق بها من جديد حتى مشيتها كانت تعجبني.

كنت أتابعها أحيانا خلسة لأمتع عيني بقدها المعتدل وهو يتثنى فى مرونة عجيبة، وكانت إلى جانب ذلك كله شديدة التألق فى ملابسها دون تبرج حتى يخيل للرائى أنها تتكلف فى تصرفاتها لكنها كانت تزيدنى إعجابا وتزيدنى شغفا بها.

خصوصا بعد أن تأكدت، أن هذه المجموعة لاتضم من الطالبات المسيحيات غير هذه الطالبة وزميلتها، وهنا شعرت برباط آخر يمكن أن يقربنى منها. لكن العجيب أن ظهور هذه الرابطة بدا وكأنه حاجز يفصل بينى وبينهما. والذى زاد هذا الأمر وضوحا كوني ريفيا دائم التحفظ فى الكلام فلا أبادر أى فتاة بالكلام إلا إذا بادرتنى هى. وقد لفتت هذه الطريقة بعض الأنظار إلي. حتى ظن بعضهن أنى ساذج , لكننى كنت فطنا. كنت أريد أعرف أسلوب كل زميلة قبل أن أختلط بهن. سألتنى إحدهن ذات مرة عن بلدى ..ديروط فضحكت وقالت بل شمالوط وليست ديروط فاستطردت وكيف حال المذاكرة ، أجبت مش بطالة . لقد تكلمت معى معظم طالبات المجموعة سألننى عن بلدى وعن ديانتي وعن حياتى فى القاهرة ماعدا هاتين الطالبتين فكانت تنظران إلي من بعيد نظرت عجيبة، وخيل إلي انه

بعد أن عرفنا أننى أشاركهن فى الديانة فأن هذا الرباط فرض عليهن التحفظ معى. ربما وإن بدا الموقف سلبيًا فى أول الأمر. لقد لفتت هذه النظرات انتباهى وحاولت أن أجد لها مدلولًا وخصوصًا أنهما تتكلمان مع زملائى الآخرين. كنت أعرف أن معظم من تكلمن معى كن يقتربن منى وكأننى مخلوق غريب من عالم آخر ورغم إدراكى لهذه الحقيقة إلا أنى كنت أتجاوب معهن بأسلوب راق بل كانت تفلت من بين شفتي بعض القفشات التى كانت تضحكهن وتقربنى منهن أكثر. كان فى ذهنى أن أثبت أننى من سلالة الفلاح الفصيح وليس من سلالة الذين اشتروا الترمای.

لقد تلاقى نظراتى مع نظراتها مرات كثيرة ولكنها لاتفصح عن شىء، ربما كان حياء وخجلا متبادل. والأيام تمر والنظرات تتلاقى دون إفصاح، وفى ذات يوم دخلت المدرج وفى يدي جريدة المساء، وجلست ألى جانب زميلى طاهر ورحت أتصفحها. وفى أثناء ذلك سمعت سالى تقول: "طاهر أرجوك، ماتحرجنيش مرة ثانية وكفاية بقه. لن أقرأ. لاتطلبوا منى ذلك!! وعرفت أنها تشير إلى ماحدث بالأمس حين طلب منها بعض الزملاء أن تقرأ المقال الذى كتبتة وأمرتها المدرسة أن تقرأ فقرأت فى صوت رقيق جذاب يختنق أحياتا ربما من فرط الحياء بسبب الموقف

المفاجيء الذى لم تكن تتوقعه. ولكن طاهر راح يضحك ويقول:

معقول يامدموازيل سالى والمقال رائع واياه رأيك يانسيم؟

وكان ردى. طبعاً مش معقول واحنا محتاجين نتعلم من المقالات الحلوة دى. ابتسمت هى أيضاً ثم نهضت ومدت يدها الى الجريدة ووأمسكت بها ونظرت فى إحدى الصفحات ثم ردتها وشكرتني. فى ذلك المساء عدت الى حجرتى الضيقة مسروراً. وبدأت ابسامتها تكبر فى خيالى فقررت من الآن سوف أحاول التحدث معها والتعرف عليها. وليكن ذلك من الغد. ومن ذلك الحين أخذت أنتهز الفرص للكلام معها. كانت كلماتى خافته بطيئة تكاد تختنق فى فمها لكننى تطورت شيئاً فشيئاً وأستطعت أن أتغلب على حيائى الريفى وأعبر عن رأي بوضوح وكانت هى تعطيتى اهتماماً كبيراً فاحس أن لكلماتى صدى عندها. بل وخيل ألي أن هذه الفتاة تحمل لى نوعاً من التقديري،

وفى ذات يوم كنت خارجاً من باب القسم فرأيتها تجلس هى وزميلاتها على الحشائش الخضراء تحت شمس الشتاء الداكنة، ويقف إلى جانبهما حسان وصبور وكان

بينهم شبه حديث. ودفعنى الفضول فاتجھت نحوهم ورأيت ان احبيهم التفت حسان فائلا فى شبه تحذير:

_ وطفى صوتك يا سالى لحسن نسيم يسمعك؟ وعرفت أنهم كانوا يناقشون حقوق المرأة فى التعليم والعمل، فلما أنكر صبور عليهن هذا الحق ردت سالى عليه قائلة:

- هوانت صعيدى؟ أما أنا فابتسمت وقلت: مش مهم قولى ماشئت، ألسنت صعيدية من أسيوط؟! فضحكت وقالت ولكنى لم أرها أبدا ولم أعش فيها يوما واحدا. ثم سألته وهل أنت من أسيوط؟ وأجاب من سمالوط.
- إذن صعيدى برضه؟ فأجاب: أيوه صعيدى وبوى صعيدى، وانفجر الجميع فى الضحك ثم عادت إلى أصل الحديث فقالت:
- على العموم أنا من رأى أن الفتاة يجب أن تتعلم وبعدين تتزوج ومن الأفضل لها تقعد فى البيت ولا تعمل إلا إذا كانت حياتها الزوجية تحتاج إلى عملها فتساعد زوجها فى أعباء الأسرة. وانفض الحديث ودخنا المدرج لساع المحاضرات. ولكن صوتها ظل يرن فى أذنى طوال اليوم حتى بلغ ألى عقلى وقلبى.

- وأخذت أقول لنفسي، إنها تعبر عن وجهة نظرها لا شك في هذا. فهي تقول ما تحسه وما ترى أنه الأفضل. ورأيها رأى قيم ومهم يدل على حسن تقدير للأمور وظروف الحياة وعلى اتزان عقلها. فهي ليست متزمتة وليست مغرورة بل أنساتة رقيقة تعرف قيمة التعاون وخاصة في الحياة الزوجية.

- وانتهى الفصل الدراسي الأول، وعدت لأقضى أجازة نصف السنة في قريتي الصغيرة، هناك على شاطئ النيل وشمس الشتاء الدافئة الحنونة وعلى رمال الشاطئ حيث يطول لي تأمل الذكريات أخذت أقلب في دفاتري . كانت حياتي صفحة بيضاء تخلو من الخطوط والألوان، فلم يسبق لي أن دخلت في علاقات عاطفية قبل الآن وها أنا في الجامعة في جو المدينة الكبيرة حيث تتسع مساحة الحرية وتتوفر فرصة الاختلاط بالجنس الآخر ويبدو كل شيء بل الحياة كلها في هذا المجتمع الجديد تبدو طبيعية. لكنني عائد وليس في نفسي إلا أصداء لكلمات رقيقة ترن في أذني وفي قلبي الخالي. وأشعر أنني في حاجة إلى هذه العلاقة أتمنى لها أن تنمو وتلد الحب الذي يكسر كل الحواجز بين البشر، هذا الشعور جعلني أستبطن مرور الأيام وأتلطف على العودة للجامعة.

- بدأ الفصل الدراسى الثانى وبدأت معه متاعب جديدة فعاونى مرض قديم، كان يعترينى من أسبوع ألى آخر فى شكل مغص كلوى شديد الألم عاد يكدر حياتى ويعطلنى، وبدأت تفوتنى بعض المحاضرات، واضطر إلى أن أستعير كشاكيل زملائه لأنقل منها ماقتنى. ولكننى وجدت فيها كثيرا من الأخطاء، فضلا عن عدم التنظيم. لم أكن مهملًا فى حياتى ولم أعود التهاون فى الترتيب والتنظيم قبل ذلك، لم أكن كسولا ولا غيبيا وكنت دائم التفوق فى سنوات دراستهى حتى الثانوية العامة أخذتها نظام الثلاث سنوات وحصلت على مجموع عالى أهلى لدخول أى كلية. والآن أتعرض لأزمات صحية تعطل مسيرتى العلمية فكيف أواجه هذا الموقف. كان حبى للمعرفة يدفعنى دائما للبحث والتحصيل وكنت أتمتع بقدرة فائقة على الحفظ تتجلى فى إقائى لقصائد طويلة من الشعر القديم والحديث، وكنت أتصور أن، مجيئى للجامعة سوف يمنحنى أكبر فرصة للدخول المكتبة الجامعة وقراءة الكتب التى كنت أعجز عن شرائها لكننى أتعرض الآن لهجمات المغص اللعين واضطر أن أذهب ألى مستشفى الجامعة مرة أو مرتين كل أسبوع وتضيع منى الليالى فى صحبة الألم الذى

لا يعطيني أى فرصة للجلوس معتدلا على كتاب. كم
حز فى نفسى الألم وبكيت حزنا على ضياع الوقت
وضياع فرصة التفوق التى كنت أحلم بها . فما ذنبى
إن الأمر خارج عن إرادتى ولا يعينى ان، أستعين
بزملائى أو زميلاتى خصوصا بعد أن أحسوا
بمشكلتى التى لم أذكرها لأحد لكن لا بد من إنقاذ
ما يمكن أنقاده. فلماذا لا أطلب منها الكشكول الذى
اريد. إنها مجتهدة وذكية ولا بد ان تكون كتابتها خالية
من الأخطاء. وفى اليوم التالى وقفت بعد نهاية
المحاضرة الأولى فى الممر الذى يتوسط القسم وكان
بينى وبينها خطوات وترددت قليلا قبل ان أطلب منها
كشكول التاريخ، وهى المادة التى كان يدرسها لنا
الدكتور عز الدين فريد بالإنجليزية وكانت تتناول
التاريخ الإنجليزى ، وهذه الدراسة كانت تقدم لنا
الخلفية الضرورية التى تساعدنا فى فهم الأدب
الانجليزى. المهم اننى ترددت قليلا وأخيرا تشجعت
ونطقت الكلمات: تسمى تعطينى كشكول التاريخ
أنقل منه محاضرة فاتتنى؟ فالتفتت إلي وكأنها
لاتصدق أن هذا الخجول يكلمها وقالت أنا؟! فابتسمت
قائلا: نعم أنت. فمدت يدها الى حقيبتها وأخرجت
الكشكول سريعا وكأنها كانت تنتظر هذه الفرصة لكى

يجرى الحديث بيننا ومدت يدها بالكشكول وقالت إنقل منه أى محاضرة على مهلك ورجعه بعد يوم أو يومين مش مهم.

- أخذت منها الكشكول وأنا ابتسم وأقول: شكرا ياسالى لقد انقذتيني. وابتهجت بهذا الكلام وعلى وجهها إبتسامة عريضة وهى تقول لاشكر على واجب بس اطلب اى حلجة تانية وأنا مستعدة. وفى اليوم التالى راح يقدمه لها فتظرت إليه دون أن تمد يدعا وهى تقول: بسرعة كده وكتبت كل المحاضرات اللى فاتك، خليه عندك لما تكمل. ورددت عليها شكرا شكرا جزيلًا. لقد سهرت معه الليل بطوله. كنت مندهشا لهذا الترتيب والنظام. كما أن جمال الخط ووضوحه ساعدنى فى عملية النقل. بل إن إعجابى بخطك جعلنى أحاول تقليده.

- وليس لدى كلمات تكفى للتعبير عن شكرى وامتنانى لأننى كنت فى ورطة بعد أن اطلعت على كشاكيل بعض الزملاء ووجدت فيها متاهة، قلة الترتيب والتنظيم مع خطوط زى خرابيش القطط والآن اطمأن قلبى. إننى سوف أعتد عليك فى حالة تغيبى بسبب المرض. ظهر عليها التأثير واحمر وجهها حياء. وهكذا أخذت ألجأ إليها كلما أحتجت إلى ذلك وهى تسرع فى

تلبية طلبى وتشجعتى، وأيضا تتبادل الحديث معى حتى عرفت الكثير عن مشاكلى الصحية وأعربت عن إعجابها بصلابتى وقدرتى على تحدى المرض طيلة السنوات السابقة وحصولى على التفوق فى الثانوية العامة ودخول هذا القسم وهو نوع آخر من التحدى.

- وذات مرة رأها زميلى نسيم ابراهيم وأنا أرد لها أحد الكشاكيل فاقترب منى وجلس إلى جوارى وكانت صداقتنا ناشئة فأخذ يداعبنى ويقول: إيه الانسجام العظيم ده يا أبو مجلى؟ يظهر إنك معجب بسالى لدرجة التفاعل معها؟ وضحكت ضحكة حقيقية وقلت: دى إنسانة فى غاية النبل والإحساس.. وسخر نسيم ابراهيم منى قائلا: يا حلاوتك ماهو باين على شكلها، وكان يقصد أنها ليست جميلة. وقطعت عليه الحديد وقلت". وده مش موضوع نناقشه الآن." ثم التفت نسيم ابراهيم نحوها ورأى فى يدها كتابا عن مسرحيات موليير وأشار أنه يريد أن يستعيره منها فنظرت إليه فى سخرية لاذعة وقلت له هذه الكتب لايمسها إلا الذين يقدرون قيمة ماتحويه أما أنت فابحث لك عن كتاب آخر يناسب تفكيرك يكون غلافه ملون وشكله جميل زى مجلات ميكى مثلا.

- " معلّش يا يا ابومجلى يافهامة. أنا عارف إنك تفهم فيما وراء الطبيعة وفى لغة الأرواح والمعانى والأحاسيس الجوانية وكل ما يوحى بالحب لكن المهم أن تحضر لنا هذا الكتاب وبعد كده مع السلامة.
- - المهم إنك تلعب فى غيرها لأن ده مش مجالك.
- وهنا دخل المدرس وساد الصمت حتى نهاية المحاضرة. خرجنا من المدرج وعين نسيم مازالت تنتقل بينى وبين سالى وهو يهمس ببضعة كلمات انت دايما تعمل مهم. معلّش بس تجيب الكتاب ده نشوفه.
- - مرت الأيام بعد ذلك فى هدوء لايعكر صفوه شىء. كان كلما رحت أتحدث إليها كان هو يبتعد عنا، وكنت أتخذ ذلك مادة للسخرية والتندر عليه أحيانا وليس فى كل وقت. وكان هو يبرر هذا التصرف بأنه شىء توجبه الزمالة، وهو كصديق مخلص أو يامل أن يكون كذلك يجب عليه ان يحترم مشاعر اصديقائه فى هذه المناسبات ويترك لنا الفرصة حتى يتيح لعلاقتنا فرصة أكبر للنمو. وهنا طرأت على خاطرى فكرة ربما تجنبنا الحرج، فحتى تسلم سالى من غيرة زميلتها أيضا فلا بد أن اجد لهذه الزميلة من يشغلها. ولم يكن أمامى من هو أجدر من زميلى نسيم ابراهيم الذى أصبحت أؤمن جانبه. وأخذت أعرض عليه هذا

وأشجعه على الوقوف إلى جانبنا حين أتحدث إلى سالى لكى أهىء له فرصة التعارف مع زميلاتها انطوانيت. ورغم أن زميلى كان يرغب فى هذا التعارف وكان يبيت النية أن يتقدم إليها إلا أن سلوكه ظل كما هو، ففى كل مرة ينوى أن يتقرب منها ويتحدث معها تخونه شجاعته فى حين ازدادت الألفة بينى وبين سالى.

-
-
ظهرت نتيجة امتحان السنة الأولى ونقلنا إلى السنة الثانية. مرت الأجازة الصيفية ثقيلة متباطئة لم تخلو أيامها من تنفيذ المغص. كل ذلك فى انتظار دورى فى العملية حتى بدأ العام الدراسى الجديد، وفى الكلية قابلت نسيم إبراهيم والتقينا بسالى وزميلاتها وسألتنى سالى عن النتيجة فطمأنتها. لم تكن الدراسة قد بدأت بعد فى القسم فذهبت إلى مستشفى الطلبة استفسر عن موعد العملية فعلمت أن دخولى قد تقرر بعد أسبوع. فشعرت براحة كبيرة ونشوة غامرة، أخيراً أخيراً سوف أتخلص من أسباب الألم والمغص واخذت أدندن بأغنية وأضحك على نفسى مما لفت نظر زميلى نسيم إبراهيم فسألنى: ميسوط وفرحان قوى بالعملية؟

فعلا، ومنذا الذى يرى نهاية الألامه ولايفرح؟ أو يلمح بداية الشفاء ولا يسر؟ لقد عانيت الأمرين من هذا المرض على مدى ست سنوات. كان المغص الكلوى يداهمنى مرة أو مرتين كل أسبوع، وكنت أقضى معظم أيامى همدان وتعبان من تاثير المسكنات من حقن وبرشام دون طائل..سنوات طويلة عشت فيها ضعيفا هزيلا يقتلنى الاحساس بالعجز والآن أفرح لأنى أرى نهاية هذا الضعف وهذا العجز.

قال: إنك حققت فى هذه السنوات ما لم يقدر عليه كثير من الأصحاء وهذا يؤكدك مجموعك فى الثاوية العامة ودخولك الجامعة فكيف تعتبر نفسك عاجزا؟

- كنت أحس أننى أهلا لنجاح أكبر، وبالرغم من ذلك فإننى وقفت عاجزا أمام أمور كثيرة كانت تتوق لها نفسى. وكان المرض يعجزنى عن إتيانها.

لكن العملية ليست سهلة ألا تخاف منها؟
- وأخاف من إيه؟ من الموت؟ إننى أموت كل يوم، والعملية لاتعنى الموت، فالموت يحدث فى كل الظروف وأنا لا أفكر فى الموت ولا أكره الحياه. كل ما يهمنى هوأن أكون قادرا على خدمة نفسى وأعيش فى حالة عادية مثل كثيرمن الأصحاء.

- وفى اليوم المحدد كنت فى مستشفى الطلبة بميدان الجيزة أرتدى بيجامة من الدمور مكتوب على صدرها

في الجانب الأيسر " مستشفى جامعة القاهرة " وقد ظن بعض الأصدقاء أن العملية سوف تتم يوم دخولي فحضروا معي نسيم إبراهيم وفرج يعقوب وناروز بسطا وقضوا اليوم كله في غرفة الاستقبال حتى تأكد لهم أن ذلك لن يتم قبل إجراء الفحوصات والتحليل وكشوفات الأشعة وخلافه وهي إجراءات ضرورية قد تستغرق عدة أيام.

- أخذت الأيام تمر دون أن تخلو من التفكير في المصير المجهول. الحياة والموت والمستقبل وألم الغربة والفقير الذي يعجز أخوتي عن الحضور والوقوف إلى جانبي في هذه اللحظات المصيرية. ورغم إيماني الشديد بالله فقد مرت بي لحظات سوداء غمرتني فيها أفكار أشد سوادا كنت أصل فيها إلى درجة الكفر والإلحاد. كنت أقارن بين سلوكي وسلوك بعض أندادى ممن منحهم الله الصحة والمال واوتو القدرة على الفساد والإفساد. وهنا أحس قسوة التجربة، التي وضعتني الأقدار فيها وما ضاع على بسبب ذلك من فرص، وأهم من ذلك ضياع المال خلال ست سنوات من الألم بينما أنا في أشد الحاجة إلى كل لحظة منها، وكل مليم أنفقته على المرض في أثنائها. كان هذا الشعور طبيعيا بالنسبة لشاب فقير مثلي

من أبناء الطبقة الكادحة حينما يدركون أنفسهم
ويدركون ظروفهم وخاصة الطموحين منهم، هؤلاء
الذين تتسع أفاقهم في حين تضيق ذات اليد عن تحقيق
أمالهم، فيحاولون تفادي العقبات وتخطى الحواجز
بالكد المضمنى والسعى المتواصل ثم يرون الحظ
السيء وهو يلاحقهم بشتى الصور، فينفد المال
ويلتهمهم المرض فيحول نجاحهم إلى فشل
وانتصارهم إلى هزيمة فيحسون القسوة والمرارة التي
تبلغ ذروتها في لحظات التفكير الصامتة فينكرون
حكمة الأقدار وعدالة السماء.

وكم من مرة عدت إلى نفسى لكى ألومها على هذا
التفكير وألتمس لها الأعذار من حولى وهى بلا شك كثيرة فمن
يرى بلاوى الناس تهون عليه بلوته. طافت بى هذه الأفكار
السوداء مرات عديدة وكل مرة كنت انتصر فيها على نفسى فأقنعتها
بعدالة السماء، ومن ثم سلمت من العقد ومركبات النقص فلم انقم
على الحياة ولم أكرهها ولم احسد الأصحاء ولا الناجحين. فقد
كنت ناجحا رغم كل شيء بل كنت أتالم دائما عندما أرى انسانا
مجتهدا ومتفانيا في عمله ويلازمه سوء الحظ.

وقد ساعدنى على الخروج من هذه المتاهة القاتمة وجود
أصدقاء كثيرين من حولى فلم يمر يوم دون أن أرى صديقا
أو أكثر. كنت اشعر معهم بالسعادة والقوة تجرى في كيانى.
إذ كنت أحس بمشاركتهم لى في الآمى، ومن ثم كنت امزح
معهم طيلة الوقت الذى يقضونه معى حتى أشعرهم
بالطمأنينة وأنى على ما يرام وماهى الأيام قليلة وينتهى
كل شيء إلى سلام. هذه الروح المعنوية العالية كنت
استمدها من التفاهم حولى ومشاركتهم المخلصة لى،
ورأيت الإخلاص في اجلى معانيه في زميلى وصديقى نسيم
إبراهيم. رأيت التفانى والتضحية في أكمل صورة، وكثيرا
ما ساءلت نفسى هل لو كنت مكانه هل كنت أفعل مايفعله
معى. وزاد ذلك من حبى للحياة والأحياء وجعانى أتساءل
كيف يعيش الناس بلا أصدقاء؟

وكم حسدت نفسى على هذه النعمة! كنت أراها غنية
تملك الكثير من محبة الناس واهتمامهم. وهذه قوة فعالة لها
فعل السحرو قوة المال وهكذا عشت حياتى متفائلا أبدا أرى
النور من خلال الظلمة، والقوة في أذيال الضعف.
والانتصار في أعقاب الهزيمة. فلم يتمكن اليأس من
الوصول ألى نفسى، رغم الصدمات المتوالية. أعود وأقول
كان زميلى نسيم إبراهيم خير صديق كان يذهب الى الكلية

في الصباح ويعودالى سكنه لتناول غذاءه ودون ان يستريح
بأتى لزيارتي في الرابعة بعد الظهر وهو موعد الزيارة
الرسمى. وكان ذلك يوميا بدون استثناء وفى يوم الجمعة
كان يزورنى مرتين صباحا ومساء في مواعيد الزيارة.
كان ذلك يحدث يوميا بدون استثناء،

وكان يطلعنى يوما بيوم على سير الدراسة وعلى
المحاضرات فلم أشعر لنى انقطعت عن الكلية يوما واحدا.
إلى جانب ذلك كان يعمل أي شيء يرى أنه يدخل
السرور إلى نفسى. وفى يوم جاء لزيارتي ورأنى ارتدى
قميصا قصيرا مفتوحا من الخلف استعدادا للدخول إلى
العملية، واستقبلته بالتنكيت والضحك ورغم ذلك فقد شحب
وجهه وانقبض وبدأ التأزم يظهر على وجهه واضحا حتى
كادت الدموع تفر من عينيه. وهنا سمعت صوته المخنوق
يقول لى " لازم تصلى قبل العملية" وأجبت سوف أفعل
وعليك أن تظمنن فالأمر أبسط مما تتصور، وسوف تأتى
غدا لترانى في أحسن حال. ورد قائلًا سوف أذكرك الليلة
فى صلاتى وادعوك بالسلامة. وودعته بالضحك والهزار
حتى يظمنن على حالتى المعنوية. ولم تتم العملية الجراحية
فى تلك الليلة وبدلا منها أجريت لى عملية منظار لتوسيع
الحوالب حتى يسهل أخراج الحصى دون جراحة.

وحدث ان أصابني صداع حاد من جراء جفنة البنج
الموضعي. وأصبح من الصعب على الوقوف أو مغادرة
السريروتريك رقتي بل كنت أحس ان عيني الشمال
مزرورة ولا أستطيع أن أفتحها كاملة . كنت احس بصداع
شديد ودوار يكاد يلقي بي على الأرض وقد وقعت فعلا إلا
أن الرئيس سيد أنقذني قبل أن أنسقط على الأرض وحملني
على يديه حتى أجلسني على السرير، فكم أنا مدين لهذا
الرج اليقظ الأمين رئيس التمريض في المستشفى؟ ومن ثم
فاستسلمت للرقاد كارها لأكثر من عشرة أيام. وكان نسيم
ابراهيم يزورني كل يوم في نفس الميعاد. وفي يوم دخل
على وهو يبتسم فقلت " أهلا وسهلا. باين عليك مبسوط
النهاردة؟ " فنظر إلي والإبتسامة تتسع على وجهه وأخذ
يهز رأسه ويقول " تعرف أنا مبسوط ليه؟، لأنى أحمل لك
أخبارا سارة " قلت له أخبار إيه كلمنى. " ورد على البنت
إياها وسكت وكأنه يختبرنى، فقلت أي بنت؟ فبدأ يفصح "
لقد تأكد لى اليوم أنها تحبك وتحمل لك تقديرا كبيرا. قابلتها
اليوم صدفه وهى خارجة من باب القسم فقلت لها نسيم
مريض في المستشفى ويطلب منك كشكول الشعر لأنه
لايثق إلا في كتاباتك. " لم تكذ تسمع كلمة مريض حتى دبت
على صدرها وتغير لون وجهها وكأن شيئا صدمها ثم بدأت
تتساءل عن مرضك والكلمات تتعثر في فمها. وشعرت

بخطورة الموقف فأخذت أطمأنها عليك حتى أفهمتها الموضوع فدعت لك بالشفاء وعرضت أن تقوم هي بنقل المحاضرات لك بنفسها وقالت " لاداعى أن يجهد هو نفسه في الكتابة وأنا مستعدة أن اكتب له كل المحاضرات حتى يتم له الشفاء." لكنى عرفتها بأننى سأكتب لك المحاضرات ولن أتركك تتعب فيها. فألحت على " لاداعى إن وقتك لا يتسع لذلك أما أنا فعندى متسعاً من الوقت " ورفضت أنا مرة أخرى ولما رأت اصرارى على ذلك وعدتني باحضار الكشكول وأى كشكول تريده. " سررت بهذا الكلام وأعربت عن شكرى وتقديرى لهذه المشاعر النبيلة. ثم بدأت أمزح مع صديقى نسيم فقلت " وهل أنا دعوتك إلى هذا؟" فقال " ولكننى تطوعت لأنى أعرف أن ذلك يسرك، وقد رأيتها أمامى فجأة فاندفعت نحوها دون تفكير وحدث ما قلته لك" فشكرته على محبته وعلى جهوده الكثيرة من أجلى ورجوته ان يبلغها شكرى وتقديرى.

في اليوم الثانى أقبل على وفى يده الكشكول المطلوب وقال، خذ هذا ومعه أجمل الأمنيات. أمسكت بالكشكول فقرأت إسمها وابتسمت ثم سألته "هل معك أخبار جديدة؟"

قال: ليست جديدة على أي حال ولكنها أخبار سارة، فقد سمعت زميلتها أنطوانيت أخبار مرضك فراحت ترفع يدها وتدعو لك بالشفاء العاجل،

فشعرت بالخجل فكم أنا مدين لهما بالشكر والإمتنان. إن مشاعرهما الرقيقة تفرض على الإنسان ان يحبهما ويعتز بصداقتها.

قال نسيم "في الواقع إنها أخلاق كريمة، لكن انطوانيت تبدو أكثر رقة ولطفا من سالي لأنها تنطلق ببساطة في التعبير عما تحس به، كما يبدو التأثير على وجهها واضحا اما سالي فلا تخلو من مكر. فهي تتحفظ وتحاول في بعض الأحيان أن تخفى تأثيرها فعندما رفعت أنطوانيت يدها وقالت يارب إشفه بدون جراحة لم تزد الأخرى على أن قالت " يارب."

فقلت كتر خيرهم، هذه مشاعر تستحق التقدير فليس لنا فضل على أحد، وأنا مدين لك ولهما بالفضل الكبير، فقد أشعرتموني أنني لست وحدي ولست معزولا عن الناس. فبلغهما تحياتي وسلامي وشكري. وانتهى وقت الزيارة فغادرتني وتركتني أنعم بهذه المشاعر الجميلة الذي وفرها الخالق لمساندتي في هذه المحنة الكبيرة، وهل هناك أفسى من محنة الفقر والمرض!؟

ومضت الأيام على هذه الحال حتى تمت الجراحة وتم إخراج خمسة عشر خصوة من الحالبين، ونسيم يزورنى يوميا ويحضر لى كل ما أحتاج إليه ويطلعنى على سير الدراسة أولا بأول، ومن حين لآخر يحمل لى بعض الأخبار السارة والأمنيات الطيبة من سالى وزميلاتها أنطوانيت مما ضاعف من تقديرى لهاتين الزميلتين وإعجابى بسالى، لأنها بادرت وانفردت بارسال كل الكشاكيل التي أحتاجها ولولاها لضاعت على نتيجة فصل كامل من الدراسة. احتاجت حالتى الصحية البقاء حوالى أربعين يوما في المستشفى وحوالى إسبوعين للأستجمام في بلدى بجوار امى وأخوتى.

وعدت للدراسة بعد هذه المدة لأستأنف المذاكرة مع نسيم حيث كنا نسكن معا من بداية الفصل الثانى في السنة الماضية، أما تعارفنا على بعض فقد حدث من الأسبوع الأول للدراسة، وأصبحنا نشكل ثنائى صعيدي بحر اوى فأنا قادم من شمالوط محافظة المنيا وهو من إمليط مركز إيتاى البارود. وذات ليلة أخبرنى أن القسم ينوى القيام برحلة للحوامدية على ظهر إحدى البواخر النيلية فوجدتها فرصة للترفيه بعد هذه الأوقات الصعبة التي مرت على فاتفتت معه على الإشتراك فيها، وعند لقائنا بسالى وزميلاتها هناونى بالشفاء ودعوتهما لمشاركتنا في الرحلة ورحبت

انطوانيت بالفكرة لكن سالى أعتذرت لضيق الوقت فعادت الأخرى واعتذرت أيضا ووعدت سالى بقبول مثل هذه الدعوة في فرصة أخرى.

في اليوم التالي وصلنا تلغراف من والد زميلي نسيم يخبره بأن خاله موريس صدمته سيارة وتوفى فانقجر نسيم في البكاء وسافر في الحال إلى بلده وبعد أسبوع عاد وهو في حالة سيئة جدا، بل حالة انهيار لأن خاله هذا رغم صغر سنه كان هو صديقه الحميم الذى يصحبه ذهابا وإيابا إلى المدرسة كل يوم، وحاولت أنا وزميلي عبدالله عبادة الذى كنت أشاركة السكن. حاولنا أن نخفف عنه الصدمة وحالة الحزن التي كانت تسيطر عليه ونشجعه على ان يتماسك ويستعد معنا للامتحان الذى اقتربت أيامه. تعبنا معه أياما ولكنه كان مستسلما ويرى أنه لافائدة من أي شيء فالحياة عبث. وأخذ يركن إلى النوم أغلب الأوقات. فكنت اقترب منه وأقرأ له دروس اللا تينية فقد كنت أحب هذه المادة وأحصل فيها على درجة عالية وكان يرفض هذه المادة ويريد أن يهملها. المهم ننى نجحت شيئا فشيئا في تحريكه للاهتمام بالذاكرة لأن الإمتحان اقتربت أيامه والتواح على الميت لن يفيده شيئا.وقد شجعتة للبقاء معى حتى نهاية الأمتحان وكان عبدالله مرحبا بهذه الفكرة وكانت النتيجة مفرحة لنا جميعا .

والواقع أن عبد الله عبادة كان يتمتع بأخلاق راقية وروح
مرحة ومحبة إنسانية عالية. وقد دعان عبدا لله للسكن معه
فتركت سكنى بميدان الروضة واستجبت لدعوته لأننى كنت
أعيش وعبد الله عبادة كان زميلى بمدرسة سمالوط الثانوية
وكنافى فصل واحد وكنا نعرف بعضنا على مدى سنوات
الدراسة وكانت علاقتنا علاقة أصدقاء فاستجبت لدعوته
حين عرفت أنه يعيش وحده أيضا. كانت الشقة عبارة عن
حجرتين وصالة وحمام وكانت بالدور الثالث فى عمارة
جديدة طويلة ونحيفة تقف كالبرج على شاطئ الجيزة.

انتقلنا الى السنة الثالثة لنبدأ عاما مليئا بالمغامرات
والمفاجآت والنشاط أيضا. إذ بدأنا محاولة ترجمة مسرحية
All For Love لجون دريدن تحت اشراف الدكتور
شوقى السكرى الذى كان يجلس معنا مرات كثيرة وللأسف
لم تتم الترجمة. كذلك انشغلنا فى مشاركة الدكتور شوقى
فى إدارة ندوة " ناجى " الأدبية فى ميدان الدقى التى كان
يرأسها وقد سعدنا بدعوة كثيرين من الشعراء والكتاب
البارزين فى ذلك الوقت. وفى تلك الأيام حدث أن اشتريت
مجلة روز اليوسف فوجدت فيها دعوة عامة لزيارة معرض
كاريكاتير فنانى المجلة وعرضت المجلة على زميلى نسيم

إبراهيم فرحب بفكرة الذهاب إلى فندق هيلتون حيث يوجد المعرض والاحتفال الذى تقيمه إدارة المجلة بمناسبة مرور خمسة وثلاثون عاما على صدور المجلة. وكانت ليلة نادرة في حياتنا لم ولن تتكرر، وقد وصفها نيم إبراهيم في المقال التالى.

-

عندما ددخلى الصعيدى هيلتون

بقلم: نسيم إبراهيم

جاء من الصعيد يحمل فى رأسه أفكارا مختلفة عن القاهرة ويحمل فى نفسه معنويات وأراء يريد أن يطبقها على طريقته الخاصة. وبعد مرور عام استطاع أن يألف القاهرة وما يدور فيها من ناس ومن أفكار. ومن ثم انطلق الصعيدى يعامل كل من يتصل به من كبير أو صغير طبقا لفهمه الخاص لهؤلاء الناس. ومن بين الذين ألتقى بهم فى القاهرة كنت أنا. اتفقت معه أحيانا واختلفت أحيانا أخرى، ربما لأنى لست صعيديا مثله إلى أن كان ذلك اليوم الذى دخلنا فيه فندق هيلتون لمشاهدة معرض رسامى روز ايوسف وكنا قد عقدنا العزم على حضور حفلة الافتتاح. وكانت ليلة امتلأ الفندق فيها بالفنانين والفنانات وبنجوم الأدب والصحافة وفنانات أخرى من الشعب. وبين هؤلاء وأولئك رايت

الصعيدى انسانا آخر. لاتبهره الأضواء ولا تأخذه المناظر كأنه زائر معتاد من زوار هيلتون الدائمين بل وكان له رأيه فى الناس والأشياء.

مر على رسومات المعرض وأعجب بها وهنا أصحابها على القيام بهذه الأعمال ثم قدم لهم تعليقاته اللاذعة. قال للدكتور مصطفى محمود إن صورته تشبه فقهاء المصاطب فضحك الدكتور مصطفى وقال إن العيب على الرسام رجائى. عندئذ نظر الصعيدى إلى الرسام رجائى وقال له " يظهر إنك خريج الأزهر" فضحك أيضا. هكذا قابل الصحفيين وكأنه يعرفهم وعاش معهم لحظات كواحد منهم وهو يحدثهم عن الصحافة وتطلعه إلى العمل بها لما يحسه فى نفسه من موهبة ومقدرة، وعاش مع الفنانين فنانا صباح عبد الحليم حافظ وكما الطويل وفاتن حمامة وصباح وتحدث معهم وكأنه يعرفهم من قبل حتى استطاع ببراعة أن يجذب صباح ويتحدث معها. ناقشها فى تقديم قصة للسينما. إنه يرى أن صباح هى الوجه الملائم كبطلة للقصة، وانتقلت به صباح إلى المخرج حسن رمزى وراح الثلاثة يناقشون الفكرة جديا ودعاه حسن رمزى لزيارته فى مكتبه. ثم تركهم وعاد يضحك. وحين سألت نسيم عن حقيقة القصة قال " بينى وبينك صباح هى آخر من يصلح لعمل قصتى، وبعدها عاش بأحاسيسه كلها مع الموسيقى حتى آخر السهرة.

نشر زميلى نسيم ابراهيم هذا المقال فى العدد الأول من مجلة "الشعلة" مجلة قسم اللغة الإنجليزى، التى تولينا تحريرها معا

بعد أن تركها الزملاء الذين تخرجوا وأنقطعت علاقتهم بها. نشر نسيم هذا المقال وكان العدد الأول حافلا بكثير من المقالات والتعليقات الالمفيدة التي لقيت قبولا وترحيبا وظلت المجلة معلقة على الحائط مدة طويلة، رغم وجود فصة لكاتب شيوعى لا أتذكر إسمه الآن قدمها لنا أحد الزملاء من أصجاب الميول اليسارية وأظنه محمد بسبوس ورأينا فيها صورة لمعاناة العمال الشديدة فى ظل النظام الرأسمالى، ولم يلتفت إليها الأمن مما جعلنا نطمع فى مزيد من الحرية وقلنا هى مجلة حائط إن رأحت أو جت. ومع ذلك فقد تمت مصادرة العدد الثانى لأسباب غير أمنية.

كان العدد يضم مقالا آخر للزميل نسيم ابراهيم يتهم فيه على الزميلات الأريستوقراطيات ذوات الأثواب التشابيهة والحركات المتشابيهة التى تتبدى فى طريقة سيرهن على شكل ثنائيات وثلثيات لافتة للنظر ومثيرة للسخرية وقد أثار هذا الكلام غضب البعض منهن فذهبن يرفعن شكوتهن للدكتور عز الدين فريد عميد الكلية وعدن من عنده ينظرن إلينا شزرا ويقلن **THERE MUST BE RESPECT BETWEEN GENTLEMEN AND GENTLE LADIES.**

فاعتذرنا لهن وقلنا على العين والراس وذهبنا للعميد لنسترد المجلة فوجدنا تهما أخرى فى انتظارنا. فقد سرقت صورة الغلاف وكانت لطالبة بالسنة الأولى تجيد الفروسية وكانت قد تم انتخابها ملكة جمال رأس البر فى الصيف السابق على دخولها الجامعة واسمها جيهان مكاوى التى عملت مذيعه فى التليفزيون بعد

تخرجها. وأوحى لها الزميلات المتذمرات منا بأن الصورة لم تسرق وأنى أخذتها لكى أنشرها فى مجلات وصحف قد تسيء لسمعتها وأقوال أخرى مما أدخل الخوف فى نفسها لكن العميد طمأنها من هذه الناحية وقال لها إن نسيم مجلى لايفعل هذا وهكذا برأى العميد من التهمة لكنه رفض أن يعيد لنا المجلة وحفظها فى مكتبه. أما المشكلة الثالثة فقد حدثت بالصدفة فأنا لم أكن ميالا للرسم ولم أجيده أبدا . هذه المرة قعدت أشخبط على ورقة فرسمت طالب ضخم الجثة سقط منه الكتاب على الأرض وهو جالس على كرسى ويده على خده وتحتها كتبت "ياميت ندامة على ألى حب ولا طالشى"

أصابت هذه الكلمات زميلنا على جمال الدين دون قصد منى فحزن وغضب وأخذ يشكو أين الصداقة وأين شهامة الأصدقاء وعرفنا أنه كان يمر بأزمة بعد أن تخلت عنه الحبيبة وكانت هى أيضا إحدى الزميلات بالقسم. هكذا تجمعت الصدفة السيئة فى وقت واحد لتضعنا فى موقف لانحسد عليه وقد تألمنا لما حدث للزميلات والزملاء وقررنا التوقف عن تحرير المجلة.

- قبيل الامتحان بأسبوعين ابتدأت أنظم وقتى وأعيد ترتيب محاضراتى خصوصا تلك التى فاتتني، واكتشفت فجأة أننى نسيت بعض محاضرات الشعرووجدت صعوبة فى مراجعة مقررالشعر بسبب ظروفى المرضية ونوبات المغص الكلوى التى كانت

تباغتني بين يوم وآخر، ففانتى سماع الأستاذ وهو يقرأ هذه القصائد ويشرحها مما يساعدنا على تذوقها والاستمتاع بها، وافتقادي لهذه الفرصة خلق فجوة بينى وبين هذه المادة، لأن الشعر ليس محفوظات نردها بدون فهم واحساس بل هى موسيقى وصور فنية تخاطب الروح والوجدان. ونتيجة لمعرفتى بهذه الحقيقة وقعت فى الحيرة فماذا افعل؟

تلقت حولى بمن أستعين وتذكرت أن صديقى نسيم ابراهيم قد سافر ألى بلدته إمليط بمركز إيتاى البارود بحيرة ولن يعود إلا قبل الامتحان بيوم أو يومين، تذكرت فى الوقت نفسه محاضرة فى الترجمة يوم الأربعاء فقررت أن أحضرها ربما أجد أحدا يساعدنى، ولحسن الحظ وجدت سالى حاضرة فقلت لها إننى أعرف أن الدراسة سوف تتوقف لمدة أسبوعين وقد يصعب علينا اللقاء قبل هذا الوقت، فطمأنتنى بأنها سوف تحضر فى الغد محاضرة اللغة العربية وسوف تحضر لى كشكول الشعر.

ولكننا مش جايين الكلية فى الأسبوع المقبل!

فقالت سوف احضر فى الساعة التاسعة يوم الأحد ولا تشيلش هم.

وفت سالى بوعداها وجاءت ومعها كشكول الشعر، ووجدت أمامى ثلاثة أيام كاملة تكفى لنقل كل المحاضرات الناقصة

عندى ، ووجدت أيضا فى كشكولها شروحا إضافية ربما نقلتها عن أبيها مفتش أول اللغة الإنجليزية بوزارة التربية والتعليم والذي يقوم بتدريس بعض المحاضرات فى جامعة عين شمس . المهم أننى فرحت بهذا الشرح فرحة لا توصف لأنه أضاء لى بعض المقطوعات الشعرية التي غمض على معناها. وكان هذا شيئا مهما بالنسبة لى لأن لى بعض المحاولات فى كتابة الشعر العربى وأظن أن دراستى للشعر الإنجليزى بتعمق سوف تفيدنى فى اكتشاف طريقى ويؤهلنى للنجاح مستقبلا.

وفى صباح الأحد ذهبت إلى الكلية وجلست على البوفيه فى انتظار حضورها لكى أعيد لها الكشكول. وكانت الساعة التاسعة لكن سالى مرت دون أن ترانى ولم أستطع أن أناديها حتى لا أسبب لها حرجا وانتظرت حتى أفرغ من شرب فنجان القهوة ثم نهضت وأخذت أبحث عنها فى داخل القسم فلم أجدها لكن بعض الزملاء أخبرونى أنها كانت تسأل عنى. أخذتنى الحيرة وأخذت أسأل نفسى، ربما خرجت من الباب الخلفى دون أن أراها وتعرف أننى حضرت لكى أعيد لها الكشكول. تعبت من السير جيئة وذهابا فى ممرات القسم وممرات الكلية فعدت للجلوس على البوفيه ظنا منى أنها ربما تعود لأنه إذا لم تتسلم منى

الكشكول اليوم فلن أجد فرصة أخرى للقائها قبل الإمتحان. أجهدى التفكير فى الأمر، ماذا تقول عنى؟ وما ذنبى فى هذا المأزق؟ لقد تعودت الصدق واحترام مواعيدى مع الناس جميعا، وهذه الزميلة التى ترفقت بى وقدمت لى العون فى أخرج الأوقات، ماذا تقول الآن عنى الآن؟ كيف تتأمر على الظروف وتضعنى فى هذا الموقف المخزى؟ هى لايمكنها أن تستغنى عن هذا الكشكول الآن فماذا أفعل لإخرج من هذه الورطة وأوصل لها الكشكول؟

هل أذهب إلى منزلهم وأسلمها الكشكول؟ إننى أعرف المنزل فى شارع المنيل وأعرف البلكونة التى كانت تطل منها فى الدور الثالث، وقد رأيتها مرات عديدة أثناء مرورى أمام العمارة وأنا قادم من ميدان الروضة حيث كنت أسكن فى سنة اولى، وكيف يكون رد فعلها إذا فوجئت بوجودى على باب بيتهم؟ وكيف يكون موقف أبيها أو أمها إذا رأتها تتكلم معى على الباب؟ أنا أعرف إن أباهها وأمها بلغا درجة عالية من الثقافة لكن هل يكفى ها لتغيير الطبع الصعبدى المحافظ؟ هل بلغ إيمانهم بالتمدن والاختلاط أن يسمحوا لإبنتهم أن تستقبل زميلا لها حتى ولو على باب الشقة؟ لكن السؤال الأهم هل أجرؤ انا فعلا على الذهاب إلى منزلها إذا حكمت الضرورة؟ بعد أن سألت نفسى هذا

السؤال أحسست بالرهبة والخجل وبدأت شجاعتي تخونني. فأنا أخشى أن أسىء إليها من حيث لأقصد. لقد أحسنت إلى ومدت لى يد العون فهل يكون رد الجميل هكذا. دارت فى رأسى هذه الأفكار والهواجس حتى كادت تصرعنى. فكرت فى أن أذهب وأترك الكشكول عند بواب العمارة لتوصيله وسرعان ماتراجعت لأن ذلك سوف يحدث نفس الأثر ولن يجنبها الإحراج، وقد يضيع الكشكول من البواب وتكون الطامة الكبرى التى لا حل لها. وهنا شعرت بالتعب الشديد فقررت أن أجلس تحت شجرة حتى أستريح وأسترد أنفاسى المرهقة.

سندت جنبى على الحشائش الخضراء الباردة التى بدأت ترطب جسمى وتمتص حرارته ثم وضعت رأسى على الأرضية الباردة وسرحت مع هذه الأحاسيس اللذيذة وأغمضت عيني ورحت فى غفوة لا أعرف مداها. افقت بعدها وأنا أشعر بالراحة والهدوء وأخذت أفكر من جديد واهتديت ألى حل غريب هو أن أحضر إلى الكلية يوميا حتى أراها وأسلمها الكشكول وأشرح لها الأمر حتى لا تسبى الظن بى . حينئذ دقت ساعة الجامعة تعلن الثانية والنصف، فتذكرت موعد الطبيب ولا بد أن أسرع حتى لا يفوتنى الوقت فأمسكت بالكشكول فى يدي ونهضت من

مكاني مسرعا ومشيت في شارع الجامعة ثم انحدرت إلى أحد الشوارع الجانبية متجها إلى شارع يافع بن زيد حيث توجد العيادة الخارجية. وفي نهاية الشارع لمحت فتاة ترتدي ثوبا أبيض تسير بجوار رجل متوسط الطول يرتدي جاكته بيضاء وبنطلونا رماديا فأخذت أحث الخطى نحوهما. أه لو تطلع هي؟ دخلت الفتاة وأبوها من الباب الخارجي للعيادة وكانت المسافة بيني وبينهما مسافة قصيرة لاتزيد عن عشرين مترا وعند دخولي من باب العيادة وجدتها واقفة أمام مكتب الاستقبال فنظرت إليها وابتسمت وأسرعت نحوها وقدمت الكشكول وشكرتها وأخبرتها أنني كنت أبحث عنها في الكلية منذ الصباح حتى هذه اللحظة فأمسكت بالكشكول في هدوء وهي تبتسم ابتسامة رقيقة وقالت " معلش جرى خير."

يالها من صدفة عجيبة أنقذتني من طوفان الأفكار التي كانت تتقاذفني فشعرت بالاسترخاء وأندفعت إلى أقرب كرسي وجلست عليه بعد أن عاد إلى الإطمئنان خصوصا حين تأكدت أن الطبيب لم يصل بعد، فقررت الانتظار. جلست هي وأبوها في الصالون وجاءت جلستهما مواجهة لفتحة الباب الواسع فأخذت أختلس النظر إليهما من وقت إلى آخر ورأيت والدها يداعبها في رقة بالغة وهي تضحك

فى دلال فحفق قلبى بقوة وتمنيت أن أشاركهما هذه السعادة
وربما أحسست بالغيرة حين رأيت والدها يضع يده حول
عنقها وودت لو قمت أنا بهذا الدور.

عاد نسّم ابراهيم من بلده استعدادا لدخول الامتحان، فلفت
نظره للمحاضرات التى نقلتها من كشكول سالى وما فيها
من شروح ضافية فانكب عليها يتفحصها بشغف شديد
وبشعور غامر بالفرح كأنه وجد كنزا جعله يشيد ويثنى
على هذا الجهد الرائع ويشكرنى على ما حقّته فى هذه
الناحية لأنه وفر عليه مجهودا كبيرا كان يحتاجه لفهم هذه
القصائد. وأثار هذا الكلام انتباه صديقنا عبدالله عباد الذى
كنت أشاركة السكن وقتها وكان يدرس فى قسم الاجتماع
فأخذ هو الآخر يعلق بطريقته الخاصة:

- لكن إزاي ده يحصل؟ تعطيك الكشكول فى هذا الوقت
الخرج وهى مطمئنة، فهل وصلت التضحية لهذه
الدرجة؟ شىء غريب ومدهش!
- لكن هذا ما حدث يا عبد الله. هكذا رددت عليه.
- وانتهز نسيم ابراهيم الفرصة وقال ساخرا: مش
غريب ولا حاجة اصل المحروسة تحفة.
- رد عبد الله أنأ لازم أشوفها انا حاسس إن ابو ابراهيم
متحامل عليها.

- - غدا باذن الله سنراها معا ونترك لك الحكم والرد
على هذا الولد المتعجرف
- فضحك نسيم ابراهيم وقال ربنا يكون فى عونك
ياسى عبدالله.

اطمئن يا عبدالله صاحبنا هذا أفكاره مشوشة ومتطرفة أحيانا
وسوف ترى، وضحكت وضحك عبدالله ونسيم وعدنا الى
قراءة المحاضرات والاستعداد للإمتحان بعد أيام، والحمدلله
قد مر كل شيء بسلام وانصرفنا لقضاء الأجازة كل ذهب
إلى بلده. وفى أغسطس عدت ألى مستشفى الطلبة لإجراء
العملية الثانية لإخراج حصوة فالتة من العملية الأولى
وتمت العملية وبعد أسبوعين خرجت من المستشفى. لم
يزرنى كثير من الأصدقاء ماعدا قلة من المقيمين بالجيزة
او القاهرة. اسبشرت خيرا بالعملية وتصورت أن الألم قد
فارقتى الى الأبد ولكن هيهات. فهى مهلة قصيرة وسوف
يعاودنى في النصف الثانى من السنة الرابعة. وكانت أكثر
السنوات قسوة بالنسبة لى حيث تقلصت المبالغ المرسلة لى
من أخوتى بل وتوقفت في الفترة الأخيرة ووجدت نفسى
مضطرا للبحث عن عمل يساعدى على إعالة نفسى حتى
أكمل امتحان الليسانس وأخذت أسال بعض الأساتذة عن
مساعدتى بتوصية لمؤسسة او لرجل أعمال يمنحنى قرصة
للعمل عنده، وكان من الذين اتجهت إليهم الدكتور مجدى
وهبة حفيد يوسف باشا وهبة وكان معروف باهتمامه
بالشباب وسمعت أنه ساعد الكثيرين ومكن بعضهم من

وظائف في مكتبة القسم وفي أماكن أخرى بالجامعة وبالصدفة وجدته أمامي على بعد خطوات فاتجهت إليه وكان يعرفني جيدا بحكم ترددي عليه خلال فترة تحريرنا لمجلة قسم اللغة الإنجليزية . وكان يراجع مانشره فيها باعتبار المشرف المسئول عن ذلك وبعد قليل من التردد قلت له أنا محتاج جدا للحصول على عمل الآن وبعد نقاش قصير مد يده في جيبه وأعطاني عشرة جنيهات ووعدني بالتفكير في مسألة العمل. أنقذني هذا المبلغ ومكني من تدبير أمورى حتى أنهيت من امتحان الليسانس. والواقع أن الإفلاس أضطرنى أنا وزميلي نسيم للتهرب من دفع أجر الشقة على مدى ثلاثة شهور، وكان صاحب البيت فلاحا طيبا ونبيلاً احس بظرونا فلم يطالبنا بالدفع حتى آخريوم ونحن نسلمه المفتاح بل دعانا لتناول الشاي عنده لكننا شكرناه على وعد منا بالعودة لدفع التسعة جنيهات المتأخرة ولكن ذلك لم يحدث. لأن كل واحد منا اشتغل في بلد بعيدة عن القاهرة إضاقه إلى مشاغل الحياة التي كانت تنسينا أشياء كثيرة.

كان نسيم إبراهيم مستعداً للإرتباط فتقدم لزميلتها انطوانيت ذات الوجه الأبيض الذى يعجبه فاعتذرت عن فكرة الزواج ثم تعلق بزميلة أخرى فاعتذرت أيضاً وقبل ان يصل لهذه

النهاية اكتشف أنها لعوب ومتعلقة بزميل آخر غير مسيحي يسكن بالقرب منها ويزورها في سكنها أحيانا وهي مغتربة وليس معها أحد من العائلة إلا اختها التي تدرس بأحد المعاهد المتوسطة. والمضحك أنه انتهى في النهاية وتزوج بفتاة صعيدية ليست بيضاء وعاش في وفاق وسلام.

كان نسيم إبراهيم في ظروف أفضل منى لأن والده كان على قيد الحياة ويعمل صرافا في القرية ويمكنه أن يوفر له الإمكانيات اللازمة بل إنه كان ويشجعه بفرح ومحبة باعتباره ابنه الأكبر الذي يريد أن يفرح به في حياته بعكس ظروفى أنا . فقد مات أبى وعمرى ثلاث سنوات وتحكم في أمورنا أخ أكبر طائش وعنيد أدخلنا في نزاعات مع معظم أهل القرية مما بدد جهودنا وامكانياتنا المادية المحدودة، ولأنه فشل في التعليم فقد فرض علينا عدم الذهاب للمدرسة وكنا ثماني أفراد أربعة بنات وأربعة أولاد كنت أنا أصغرهم جميعا. والمؤسف أنه نجح في حرمانهم حتى من التعليم الابتدائى حتى جاء الدور على حيث حاول تعطيلى مرات كثيرة ولكنى تمردت ولم استسلم ومن هنا بدأت العداوة. وأخذ ينتهز كل فرصة ليضع أمامى العراقيل حتى حصلت على الليسانس وعينت في بلد بعيدة ولكنه لم يهدأ رغم أنه كان اول المستفيدين منى ومن عملى إذ كنت أرسل

الجزء الأكبر من راتبي الشهري لأخى الأصغر منه والذي يحمل هموم الأسرة كلها وخصوصا لأن أمى كانت معهم وكانت توصينى دائما على هذا الأخ الشرير ورغم أن له ستة أطفال يعيشون في قلب الأسرة ويتمتعون بكل مايصل إلى البيت منى إلا أن كراهيته وحقده على لم يتوقف حتى آخر يوم في حياته.

هذه حالتى بلا تجميل فإذا سألتنى عن الحب ،أقول لك وهل يمكن لمثل هذا الحب أن يعيش قى جو الفقر لابد أن يختنق وقد أختنق فعلا لكن بدون أحزان أو كلمة وداع. ببساطة لأن هذا الحب لم يعلن عن نفسه بين الطرفين وظل حبا مكتوما في القلوب طول الوقت. فقد حرصت على أن يكون زمالة راقية أو صداقة مخلصه لآ اكثر لأننى كنت معتزا بكرامتى رغم كل شئى، ولا أسمح ان أضع نفسى في موقف يمس هذه الكرامة. فلا يمكنى مثلا أن أقول لسالى أنا أحبك ولكن العين بصيرة واليد قصيرة وهذا أسلوب المتسولين. وقد فهمت هى طبعاً بعد تقدم زميلي نسيم إبراهيم لزميلتها أننى لا أستطيع الإقدام عل هذه الخطوة. وظلت على وفائها في معاونتى بتقديم الكشاكيل لنقل المحاضرات التي تفوتنى بكل أريحية وإخلاص، فقد فهمت ظروفى وقدرت موقفى فهى لاينقصها الذكاء اوالوعى الشديد والإحساس الصادق بما أعانيه في أعماقى. لذلك استمرت العلاقة راقية حتى آخر يوم في الدراسة. وقد رأينا في آخر محاضرة عامة

معها شابا وسيما يبدو أنه أحد أقاربها يجلس إلى جانبها ثم سمعنا أنه خطيبها فتقدمت ومعى زميلتى نسيم لتهنئتها. وانصرفنا وهكذا إنتهى حلما من الأحلام الجميلة.

أما حكايتى مع نسيم ابراهيم، فقد بدأت بالصدفة على البوفيه ظننته فلسطينيا فأخبرنى أنه مصرى من البحيرة من إيتاى البارود فرحبت به وعرفت بنفسى فقال أنه كان يرغب فى دخول قسم اللغة الإنجليزية لكن كتبوا اسمه فى قسم إجتماع واعترض لكن الأستاذ راضى الموظف بشئون الطلبة رفض أن ينقله إلى قسم اللغة الإنجليزية وهو حيران ومش عارف يروح لمين. فقلت له بسيطة تيجى معايا تكتب ورقة للدكتور رشاد رشدى رئيس القسم وتتهى مشكلتك. وهذا ما كان ومن ذلك اليوم صرنا أصدقاء وشركاء فى السكن حتى تخرجنا معا فى سنة 1960، وتم تعييننا مدرسين فى وزارة التربية والتعليم.

كانت رغبتى أن أعين فى المنيا وطلب هو التعيين فى البحيرة لكن حدث الخطأ فعينت أنا فى كفر الشيخ جني البحيرة وعين هو فى المنيا يعنى جطوا البحراوى فى المنيا و المنياوى فى كفر الشيخ فى وجه بحرى رفضوا فى الوزارة تصحيح هذا الخطأ وقالوا يمكنكم بعد تسلم أعمالك تعملوا بدل لكنه بعد أن ذهب إلى المنيا ورأى جمال امدينة رفض أن يبادلنى ومع ذلك استمرت صداقتنا نتقابل فى الإجازات لسنوات طويلة حتى انتقلنا الى الجيزة واصبحنا تلتقى باستمرار خصوصا بعد أن بدأت أجرب حظى فى الترجمة وكتابة المقالات الأدبية وحاول هو أن يسير فى نفس

الطريق فنشر عدة مقالات فى مجلة المسرح وترجم كتابا فى النقد
ومسرحية وطنية عن كفاح المصريين ضد الهكسوس .

والتحقت انا بالدراسات العليا بعهد الفنون المسرحية وتقد هو فى
العام التالى ونجح واكملنا دراستنا وحصلنا على الدبلوم ولم نستمر حيث
تعاقدنا على العمل فى ليبيا حيث قضيت بها ست سنوات جميلة وقضى هو
عشر سنوات ثم جاء ولم يكد يهنأ بالبشقة الجديدة التى اشتراها على
شاطئ النيل بالجيزة حتى أصيب برم خبيث فى المخ أجريت عملية فى
معهد نا صر لكنه توفى فى الثانى من اكتوبر 1994 وكان هذا اليوم من
أسود أيام حياتى.

توضيح: أعدت كتابة هذه القصة بعد خمسين عاما وقد تخطيت الثمانين
بعده سنوات، أعدت كتابتها معتمدا على تفاصيل سجلتها فى وقت وقوع
أحداثها إضافة لما وعته الذاكرة وأضافه الخيال وهو ضئيل جدا .

المؤلف

نسليم مجلى

ولد فى 10 يولية 1934 بسمالوط - محافظة المنيا
حصل على ليسانس الآداب فى قسم اللغة الانجليزية
من جامعة القاهرة 1960
عمل بتدريس اللغة الانجليزية بالمدارس الثانوية فور

حصل على دبلوم الدراسات العليا فى النقد الأدبى
1970 وانتدب لتدريس اللغة الإنجليزية والنقد بمعهد
الفنون المسرحية وجامعة القاهرة.

من مؤلفاته:

المسرح وقضايا الحرية
ابن سينا القرن العشرين
أمير شعراء الرفض أمل دنقل
لويس عوض ومعاركه الأدبية
صدام الأصالة والمعاصرة
حنين ابن اسحق وعصر الترجمة العربية
وله العديد من الترجمات منها:
كافكا
محاكمة سقراط
العصر الذهبى للإسكندرية
كيف تقرأ ولماذا
بالإضافة ألى عدد كبير من المسرحيات الأفريقية

والانجليزية